التَّفرُّقُ المَذْمُومُ في ضوءِ القُرْآنِ الكرِيمِ

دِراسَةٌ فِي أهَمِّ الأسْبَابِ المُنْشِئَةِ

د/ عبد الواسع عبده هِزَبْر خالد المِخْلاَفِي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك
بقسم الدراسات الإسلامية – كلية الآداب
جامعة تعز– اليمن

ملخص البحث

يُحاولُ البحث تلبية الحاجة الضرورية لهذه الأمة في بيان الدوافع والأسباب لما وراء بروز ظاهرة التفرق المذموم بين المسلمين، ومعرفة الفلسفة الكامنة خلف هذه المشكلة الكبيرة، وفي هذا الصراع البيني في الحياتين الدينية والدنيوية معا، والنظر إلى أهم الأسباب المنشئة له في ضوء القرآن الكريم، كانت الكتابة في هذا الجانب رغبة من الباحث لأهمية الموضوع وخطورته، وضرورته المُلِحَّة، قياما بالواجب الديني والوطني والعلمي والأكاديمي والدعوي والأخلاقي نصيحة لله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم. فكان انطلاق البحث من تناول الآيات القرآنية ذات العلاقة بالمجال، بمنهجية الدراسات القرآنية، في موضوع:(**التَّفرُّقِ المَذْمُوم في ضوء القُرْآنِ الكرِيم– دِراسَةٌ في أهم الأسْبَابِ المُنْشِئَة)**. وجاءت خطة البحث في ستة مباحث هي أساس البحث.

ويهدف البحث إلى الإسهام في صناعة الوعي في العقلية الإسلامية حول التفرق المذموم قدر المستطاع، ومعرفة طبيعة الأسباب والدوافع التي تكمن خلف هذه الحالة الافتراقية والشتاتية المذمومة التي تعيشها الأمة الإسلامية في كل جوانبها، الأمر الذي بلغ بالإنقسامات حدَّ التخاصم والتنازع والقتال البيني المستدام، وذهاب ريح الأمة ووحدتها، وحضور التخلف في كل المجالات والمستويات ذات العلاقة، وصولا لإمكانية تفعيل نهضتها بين الأمم من جديد.

ومن أهم نتائج البحث أنه توصل إلى خلاصة مكَّونة من خمس نقاط أساسية، هي أهم الأسْبَابِ المُنْشِئَة للتفرق المذموم في ضوء القرآن الكريم وهي: الجهل بالدين الحق مع اتباع الهوى وترك الأدلة الشرعية. – التَّعصُّبُ للآبَاءِ والآرَاءِ والقادة والعَصَبِيَّة للقَبِيلَة والجَمَاعَة. – الجِدَال والمِرَاء بغيْر الحقِّ والاخْتِلاف المكروه حوْل القُرْآن.– التَّقْلِيد السّلْبي والتّشبُّه بأهْلِ الكِتَاب والتَّبعيَّة لهم بالغَلَبَة. – التدخل الأجنبي المباشر وإسهام أدعياء العلماء من الداخل. هذه النتائج الخمس تمثل رؤوس أهم الأسباب الإجمالية المنشئة للتفرق كما أشار إليها القرآن واستطعنا بحثها، وهي خلاصة البحث.

Negative Dispersion in the Light of the Holy Quran

A Study of the Causes of its Existence

By: Dr Abdulwase' Abdu Hizabr Al Mikhlafy
Professor of Interpretation and Quran Studies
Islamic studies Dept. Arts College, Taiz University, Yemen.

The present paper aims at exploring the reasons beyond the existence of the negative dispersion among Muslims. This study shed light on the conflict between this life and the life hereafter and its effects on Muslims in the light of the Holy Quran. The researcher feels that it his duty academically, religiously, scholarly, and ethically to tackle this topic for the sake of Allah, his messenger, his book and for all Muslims. As a result, the present study, via the Quranic approach, deals with the title *Negative Dispersion in the Light of the Holy Quran: A Study of the Causes of its Existence.* The study consists mainly of six chapters.

The research contributes in the awareness of the Muslim mentality regarding the negative dispersion among Muslims. Besides, it formulates the knowledge of the real causes for such fluctuation in the Muslim society that results weakness, ignorance and instability in all of the related levels. This might be helpful to regain the vitality of Islamic nation once again.

The present study concludes with five results including the reasons of this dispersion:
The sheer ignorance of the religion with following the self-leisure and rejecting the *shar'a* evidence. – the bigotry for opinions of the family or the tribe or the related group. – the meaningless controversy over this dispersion about the Holy Quran.- total Blind imitation of the disbelievers.- the foreign conspiracy and interference is the final reason beyond the negative dispersion among Muslims in the Holy Quran. These are the results discovered by the researcher.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى أصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم واقتفى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد..

فإن الله تعالى قد خصَّ الإنسان في خلقه بطبيعة تختلف عن سائر المخلوقات، فخلقه في أحسن صورة وقامة، وميَّزه بالعقل وهو أساس التكليف، وبالكلام والبيان وحسن التصريف، وبالحواس الظاهرة والباطنة المسؤولة عن التوظيف، وبالروح من أمر الله سرِّ أسرار الخالق اللطيف، وجبله على الميل إلى التمايز والتنافس، وحب التفرد والاعتزاز بالذات والنفس والنفيس، وعلى طبائع السيطرة والاستحواذ والانتصار بالغالي والرّخيص، والرغبة الجامحة في تسخير الآخر من بني جنسه والأغيار لخدمته، والقيام بمهامه العامة ومصالحه الخاصة بالحق أو بالباطل، وجعل في طبيعته وأسرار تكوينه النأي بذاته عمن خلق، والإعراض بجانبه عن المنعم، وفي سيرته كثرة القيل والقال وتكرار السؤال، وجمع المال، وتكثير عدد البنين والعيال، والمراء والجدال، والتَّنازع والاختلاف والنِّزال، كما هو الأمر ثابت في القرآن في أكثر من آية، وبأوضح بيان، ومنها، في قول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا** ﴾ [الكهف:٥٤].

وبناء على هذه الطبيعة الإنسانية بتركيبتها المُعَقَّدة كان الاختلاف في الرؤية والتصور والإدراك والسلوك، وفي النظر إلى الأشياء والحكم عليها، وفي أسلوب العيش والحياة والتفاعل مع المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، وفي طبيعة الشخصية شبه الاستقلالية في اتخاذ القرار والاختيار، والقبول والرضا أو الجحود والرفض لدواعي الهدى أو لنوادي الضلال، لنداء الخالق الرحمن، أو لهاتف المارد الشيطان، فكان الاختلاف والتنازع والافتراق سمة بارزة بين الإنْس، وغالبه الاختلاف المذموم حَوْل الأديان والكتب السماوية، وحَوْل الأنبياء والرسل

ورسالاتهم، والمصالح الدنيوية، والمآلات الأخروية، وعالمي الغيب والشهادة، وكل ما يتعلق بحقائق الدين وأصوله الكبرى، وهم على ذلك على مرِّ التواريخ والأزمان والأماكن والأحوال حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها، إلا ما رَحِم ربك، وقد رصد القرآن الكريم هذه الظاهرة ووصف حال الناس في الاختلاف والتفرق والافتراق حَوْل هذه القضايا وأثبتها نصًا، فقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [هود:١١٨– ١١٩].

ولو ألقينا نظرة عامة لواقع أمتنا العربية منها والإسلامية، وإلى المسلمين في العالمين الغربي والشرقي في زماننا هذا، وتفحَّصْنا حياة الناس مجتمعات وجماعات، أشياعا وأحزابا، شعوبا وحكومات، جاليات وأقليات، لوجدنا واقعا مؤلما ومريرا، كيف وقد ارتفعت في أوساطنا رايات الافتراق المذْموم، والفرقة الضالة المشؤومة، وعَلَت نداءات المفرِّقين، وخفتت أو أُخْفِتَت أصوات الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، وكادت آمال الوحدة والاتحاد تتلاشى، وكذا الاجتماع والائتلاف، حتى أصبح التفرق المذْموم ظاهرة عمّت حياة المسلمين الشخصية والدينية والثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية والتشريعية، بل إن هذا التفرق ظهر جليا في الافتراق البيني الحاصل، وفي الصراع الديني الواصل، والاختلاف السياسي الواسع، والجدال الفكري العميق، فضلا عن النزاعات الجغرافية والإقليمية الشاملة.

كيف وقد داهم التَّفرق المذْموم الأنظمة والسَّاسَة والقادة وولاة الأمور وعِلْيَة القوم، والملأ الاسلامي كله، والأكثر من ذلك خطورة على الفكر الإسلامي، وهَلاكا لثقافته وأُلْفَتِه، وإهلاكا لشريعته أن هذا الافتراق المذموم قد داهم نُخبَة من علماء الإسلام وفقهائه ودعاته، الذين يفترض أن يكونوا ورثة الأنبياء بحق وحقيقة، فقصم ظهورهم هذا الاختلاف المتَجذِّر، وشتت قلوبهم، فكانت الفُرقة المشؤومة التي وصلت الذروة فيهم فجعلتهم فرقاء متشاكسين، مختلفين الاختلاف البائن المحظور والمحذور، في جوانب ذات أهمية وخطورة، هي مهلكات كالتعصب والتَّحزُّب والعَصبيَّة في الدين والتدين، وفي العلم والمذهب والجماعة والفقه والفتوى وشؤون الحياة، فاتخذوا الاسلام لهوا، ومصادره لعبا، وأدبياته هزوا، ولك أن تتفكر إلى أي مدى قد غمر هذا التفرق المذموم في مجالات الحياة وجوانبها، وهذا الصراع الحاد الموجَّه عامة الناس وخاصتهم في الشعوب العربية والاسلامية، بل وأجَّج نار الفتن في قلوب جهلائهم وبسطائهم وسوادهم الأعظم وشتَّتَها؟!.

وبناء على هذه الظاهرة السَّيِّئة الملموسة، والحالة المكروهة المحسوسة التي تشكل رؤية واضحة بأدلتها وشواهدها وواقعها وقائعها فإن الحاجة ضرورية إلى بيان الدوافع لما وراء بروز هذه المشكلة، ومعرفة الفلسفة الكامنة خلف هذ التفرق المذموم الحاصل في الأمة الإسلامية عامة، وفي الأمة العربية خاصة، وفي هذا الصراع البيني في الحياتين الدينية والدنيوية معا، والنظر إلى أهم الأسباب المنشئة له، وعليه فقد قوي عزمي، وازداد حبي، وكبُر دافعي للكتابة في هذا الجانب المؤسف في أمتنا، استجابة مني لأهميته الكبرى وخطورته، وضرورته المُلِحَّة، وللقيام بواجبي الديني والوطني والعلمي والأكاديمي والدعوي والأخلاقي نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

كل ذلك نتناوله إنطلاقا من القرآن الكريم وآياته الكريمات ذات الاتصال المباشر بهذا المجال، فكان العنوان المختار للبحث هو :(**التَّفرُّقِ المَذْمُوم في ضوء القُرْآنِ الكرِيم– دِراسَةٌ في أهم الأسْبَابِ المُنْشِئَة)**، وبه ننشد الإسهام في صناعة الوعي قدر المستطاع بالقضية في العقلية الإسلامية، وخَبْر طبيعة الأسباب والدوافع التي تكمن خلف هذه الحالة الافتراقية والشتاتية المذمومة التي تعيشها الأمة الإسلامية، الأمر الذي بلغ بالإنقسامات حدَّ التخاصم والتنازع والقتال البيني المستدام، وذهاب كلمة الأمة الإسلامية ووحدتها وحضور تخلفها في كل المجالات، وعلى كل المستويات ذات العلاقة وصولا لإمكانية تفعيل نهضتها بين الأمم من جديد. من باب لعلى وعسى وربما! وقد جعلت البحث في مقدمة، وستة مباحث، وخاتمة، حسب ما هو آت:

المبحث الأول: مفهوم التَّفرُّق المذموم واهتمام القرآن الكريم ببيان أسبابه

المبحث الثاني : الجهل بالدين الحق مع اتباع الهوى وترك الأدلة الشرعية

المبحث الثالث: التَّعصُّبُ للآبَاءِ والآرَاءِ والقادة والعَصَبِيَّة للقَبِيلَة والجَمَاعَة

المبحث الرابع: الجِدَال والمِرَاء بغيْر الحقِّ والاخْتِلاف المكروه حوْل القُرْآن
المبحث الخامس: التَّقْلِيد السّلْبي والتّشبُّه بأهْلِ الكِتَاب والتَّبعيَّة لهم بالغَلَبَة
المبحث السادس: التدخل الأجنبي المباشر وإسهام أدعياء العلماء من الداخل

المبحث الأول

مفهوم التَّفرُّق المذموم واهتمام القرآن ببيان أسبابه

أولا: معنى التفرق والافتراق في الاستعمال اللغوي:

قال أحمد بن فارس في مادة (فرق):" الْفَاءُ وَالرَّاءُ وَالْقَافُ أُصَيْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزٍ وَتَزْيِيلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ.. وَالْفِرَقُ: الْفِلْقُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا انْفَلَقَ، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى:﴿ **فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء:٦٣]. وَمِنَ الْبَابِ: الْفَرِيقَةُ، وَهُوَ الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ، كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ فَارَقَتْ مُعْظَمَ الْغَنَمِ "(١).

وقال الراغب الأصفهاني: والفرق: القطعة المنفصلة، ومنه: الفرقة للجماعة المتفردة من الناس،.. والفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين، قال: ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ**﴾ [آل عمران:٧٨]، ﴿ **فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٧]،.. ﴿ **وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ** ﴾ [البقرة:٨٥]، ﴿ **وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ**﴾ [البقرة:١٤٦]،.. والتفريق أصله للتكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشمل والكلمة. نحو ﴿**يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿ **فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [طه:٩٤]، وقوله: ﴿ **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾ [البقرة:٢٨٥]،.. وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٥٩]، وقرئ: ﴿ **فَارَقُوا** ﴾ (وبها قرأ حمزة والكسائي. من المفارقة) (٢).

وجاء في لسان العرب: والتَّفَرّقُ والافْتِراقُ سواء، ومنهم من يجعل التَّفَرّق للأَبدان والافْتِراقَ في الكلام، يقال فَرَقْت بين الكلامين فافْترقَا وفَرَّقْتُ بين الرجلين فَتَفَرّقا..، وفي الحديث من فارَقَ الجماعة فَمِيتَتُه جاهليّة، ومعنى قوله فميتته جاهلية أَي يموت على ما مات عليه أَهل الجاهلية من الضلال والجهل(٣). وفي المعجم الوسيط جاء في معنى التفرق ما خلاصته أن :" (تفرق) الشيء تفرقا وتفراقا تبدد والرجلان ذهب كل منهما في طريق"(٤).

هذا أهم ما جاء في الاستعمال اللغوي لكلمة(الفُرْقة والافْتِرَاق والتفرق) وجذرها الثلاثي(الفاء، الراء، القاف) وبعض صيغها واستعمالاتها في اللسان العربي التي لها علاقة مباشرة بما نريد تقريره في المعنى، مثل: الفرق، والتفرق، والافتراق، وكلها استعمالات لغوية تدل بأصل الكلمة على التمييز والتميز، والانشقاق والانفصال بين شيئيين كانا يجب أن يكونا متحدين في الأساس والأصل، لكنهما افترقا وتفرقا بفعل حادث مادي أو معنوي، محسوس أو معقول... فصار كل فريق أو فرق إلى اختلاف وافتراق وربما إلى تنازع وشقاق واقتتال، أي صار المفترقين كل إلى حاله الذي اختاره لنفسه.

ثانيا: مفهوم التفرُّق في الاستعمالين الشرعي والاصطلاحي:

أما التفرق المذموم في الشرع فيمكن إطلاقه على أمرين: عام، وخاص: **فأما العام** فهو التفرق المذموم في الدين الحق والأنبياء والرسل والكتب السماوية التي نزلت في ذلك، بحيث يتحقق على مستويين: الاختلاف الكلي كالذين يكفرون ويفارقون، والاختلاف الجزئي

(١) **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، ج٤ص ٤٩٣- ٤٩٤.
(٢) **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، ج٢، ص١٨٨-١٩٠.
(٣) انظر: **لسان العرب**، ابن منظور،ج١٠- ص٢٩٩.
(٤) **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج٢، ص٦٨٥- ٦٨٦.

كالذين يكفرون ببعض ويؤمنون ببعض. **وفي الخاص** : قد يطلق ويراد به: الافتراق عن جماعة المسلمين العاملين المخلصين الذين من فارقهم مات ميتة جاهلية كما جاء في الحديث الذي رواه أَبِو هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: (مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَخَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ...) [٥]، وكما يقول ابن منظور: "يعني أَن كل جماعة عَقَدت عَقْداً يوافق الكتاب والسنَّة فلا يجوز لأَحد أَن يفارقهم في ذلك العقد فإِن خالفهم فيه استحق الوعيد" [٦].

وأما التفرق المذموم في الاصطلاح: فهو كل اختلاف مذموم، وتنازع محظور، وشقاق منكور بين الناس في النقل والعقل ويؤدي إلى التفريق النظري في الأخلاق والأفكار والمعتقدات والسياسات، وإلى التفريق العملي في السلوك والمعاملات والأبدان.. وينطبق ذلك على مستوى الأفراد والجماعات والأحزاب والطوائف والملل والنحل، ويكون على المستوى الداخلي لأهل الدين الواحد، أو على المستوى الخارجي بين أهل الأديان سابقها ولا حقها، أولها وخاتمها.

وحاصل مفهوم التفرق المذموم في الاصطلاحين الشرعي والاصطلاحي: هو الخروج الكلي أو الجزئي عن منظومة أركان الإسلام والإيمان في التصور والتنظير والاعتقاد والأخلاق والسلوك، والتفرق المذموم عن ثوابت الإسلام ومصادره كالقرآن الكريم والسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وإجماعهم وقياسهم، ومفارقة جماعة المسلمين أهل السنة والجماعة العاملين بصراط الله المستقيم، المهتدين بطريق سيد المرسلين في أي أصل من أصول الدين الإسلامي القطعية كلها أو بعضها، وسواء كانت هذه الأصول اعتقادية نظرية، أو أصول عملية تطبيقية، أو تلك الأصول التي تتعلق بالحق المطلق وحقائق الدين الكبرى، وكل ما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو تلك الأصول المتعلقة بقضايا الأمة الكبرى ومصالحها العظمى أو بهما معاً، كالإمامة والسياسة الشرعية، أو تحكيم الشريعة الاسلامية وتطبيق أحكامها وحدودها في الواقعين: النظري والعملي للأمة، وبحسب هذا المفهوم قد يكون الافتراق عن الدين الحق كفرا بواحا، وقد يكون عصيانا وتمردا وبغيا.

ثالثا: مفهوم التفرق في الاستعمال القرآني:

الناظر في القرآن الكريم والقارئ لآياته، والمتتبع لجُمَلِه وكلماته في هذا المجال يدرك أن ألفاظ الفُرْقَة والافتراق والتفرق وفرَّق والفريق المذكورة فيه قد استعملها القرآن بكثافة في المخالفين للحق، والمناصرين للباطل، وفي المؤيدين للشر، أولئك الذين وقفوا ويقفون في مواجهة الوحي السماوي الممثل بالكتب السماوية المنزلة: التوراة، والزبور، وصحف إبراهيم، والإنجيل والقرآن، ورفض دعوات الأنبياء والرسل بالكلية أو بالجزئية، ورد الرسالات بالجملة أو بالتفصيل على مستوى الأديان السماوية وكتبها، أو على مستوى الدين الواحد كالإسلام آخر الأديان، والكتاب الواحد كالقرآن خاتم الكتب المنزلة.

وكل هذه الاستعمالات القرآنية تحضر في القرآن الكريم بين ثنايا أوامر ناهية عن الفرقة والتفرق والافتراق، وفي ثنايا أوامر داعية إلى توحيد الله وطاعة أنبيائه ورسله واتباع كتبه، وموجبة على الناس الاعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرقوا، وهو ما خلاصته في ديننا الإسلامي طاعة الله ورسوله وعدم عصيانهما، بمعنى التمسك بكتاب الله وسنة رسول-ﷺ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ**

[٥] **مسند الإمام أحمد**، أحمد بن حنبل، ج٨، ص١٤٧.
[٦] **لسان العرب**، محمد بن مكرم ابن منظور، ج١٠- ص٢٩٩.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[آل عمران: ١٠٠-١٠٥].

لذلك جاء القرآن ليقرر الدخول في الإسلام ويحظر التفرق والافتراق عنه والوقوع فيما وقعت فيها الأمم السابقة من الافتراق عن أنبيائها ورسلها وكتبها. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [آل عمران:١٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥]. ، وقال تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [البقرة:٢١٣] ، ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [الجاثية:١٦-١٧].

وقد استفاض القرآن بنصوص كثيرة، وآيات غزيرة في هذه الفُرْقَة المُنكَرة، وفي هذا التفرق المذموم تحذيرا ونهيا وإنكارا، بل وتشنيعا بسلوك سُبُل التفرق وأهل الافتراق والمفترقين، وذلك في آيات كثيرة منها، قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ [الأنعام:٦٥]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام:١٥٩]. وقال تَعَالَى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا**﴾ [الروم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ التي وَصَفت التَّفَرُّقِ ودلَّت عليه؟ وقال تعالى مخاطبا الرسول محمد -ﷺ- وكاشفا له حقيقة هاتين الأمتين في مفارقتهما للدين الاسلامي، وأن موقفهما النهائي هو الكفر بالنبي محمد -ﷺ- الرسول والرسالة والقرآن جملة وتفصيلا، قال تعالى: ﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهي رسالة قرآنية بيانية فيها بلاغ لهذه الأمة بموقف اليهود والنصارى السلبي من الإسلام، وهي كذلك رسالة قرآنية تحذيريَّة لأمة الإسلام أن تقع في التفرق المذموم كما هو الأمر عند هاتين الأمتين.

رابعا: اهتمام القرآن الكريم بتقرير الأسباب المنشئة للتفرق المذموم:

إن القارئ في القرآن الكريم، والمتتبع لآياته البيّنات ذات العلاقة بذم التفرق والمفترقين، والمتأمل في معانيها الظاهرة والباطنة، يرى اهتمامه البالغ بتقرير هذه القضية من مختلف جوانبها، فأصل كلمة(فرق) تذكر باستعمالاتها واشتقاقاتها ومرادفاتها وصيغها وأساليبها في سياق آياتها، ما يقارب من اثنتين وسبعين مرة[٧]، فضلا عن عشرات الآيات المندّدة بالاختلاف المذموم والمهدِّدة بالتنازع والفشل، وكذلك يجد القارئ أن أسباب وقوع التفرق عن الدين هي كثيرة ومتشعبة ومتداخلة، لتشمل عوامل خارجية لأهل الكتاب من اليهود والنصارى كما فعلوا بأنفسهم، وعوامل داخلية هي اختلافات أخلاقية وفكرية وعقدية وصراعات سياسية بين ذات المسلمين.

ولنكن صرحاء صراحة القرآن الكريم في بيان الأسباب والدوافع التي تصنع في المسلمين التفرق والافتراق، وتعمل على توسيع التخاصم بينهم، وإحداث التنازع والتقاتل، وذلك بما كسبت أيدي الناس أفرادا وجماعات، أقواما وأمما، حكاما وشعوبا، كما هي المكاشفة لهذه الأسباب في القرآن الكريم بالحقائق والأحكام والتعليلات وكذلك في بيان سنة النبي -ﷺ- الصحيحة الثابتة.

ومع أن هذه الأسباب الصانعة للتفرق المذموم في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة، وتشمل كل مجالات الحياة الدينية والدعويَّة والفكرية، وفي السياسة الشرعية، والطبائع الشخصية للناس في مواقفهم من الإيمان بالله، والكتب السماوية المنزلة، والأنبياء والرسل المبعوثين فيهم، إلا

[٧] انظر، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥١٦-٥١٧.

أن هذه الأسباب تعود في مجملها إلى أسباب عامة وتفصيلية في مختلف المجالات للحياة الإنسانية، والبحث هنا لا يتسع لدراسة ذلك كله، ولكننا نذكر أهم تلك الأسباب، وهو ما نبدأ به مباشرة من المبحث التالي وما يليه من المباحث حتى النهاية:

المبحث الثاني

الجهل بالدين الحق مع اتباع الهوى وترك الأدلة الشرعية

أولًا: الجهل العام بالحق المطلق بالله وبأصول الدين وحقائقه الكبرى:

إن الجهل بالله تعالى، وعدم المعرفة بأهمية الدين الحق، والجهل بالحكمة من بعث الله الأنبياء إلى الناس، والغاية من إرساله الرسل إلى الأمم، وبالمهمة المنوطة بورثتهم في التبليغ من الخلفاء والصحابة والعلماء العاملين المخلصين القائمين على الحق المبينَ هو من أعظم أسباب الافتراق بين الناس وخالقهم جلا وعلا، وبين الأقوام وأنبيائهم ورسلهم، ولذلك فقد حذّر القرآن الكريم من الجهل بشتى أنواعه وصوره وصيغه واشتقاقاته وتصريفات التي بلغت مادته في القرآن الكريم أربعا وعشرين مرة، على تفاوت بين الصيغ السبع بعد الإحصاء، وهي: تجهلون، يجهلون، الجاهل، جاهلون، جهول، جهالة، الجاهلية [٨]، ويظهر ذلك جليًا في عرض القرآن لقصص الأنبياء مع أقوامهم في كثير من السور والآيات، ووقفتنا هي عند صيغتي: تجهلون ويجهلون، وفي بعض مواضع ورودهما وليس كلها.

فهذا نوح –عليه السلام– في خطابه لقومه الكافرين: ﴿**أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾. يبيّن لقومه سبب مخالفتهم له وإعراضهم عن دعوته، قال الله تعالى:﴿ **وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾[هود:٢٩]، مثَّل نوح –عليه السلام– في هذه الآية النبي العالم والرسول البصير وهو كذلك، حيث استطاع تحديد الداء العضال والسبب الأول الذي جعل قومه يعتمدون سياسة المعارضة له والدعوة إلى التفرق عنه، بحيث وصلت بهم وقاحة الجهل إلى طلب الطرد للمؤمنين ومفارقتهم لإرضاء القوم، ألا وهو مرض الجهل المركب والشامل المتحكم في عقولهم.

وموسى –عليه السلام– في خطابه لبني إسرائيل: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾. فبسبب الجهل بالدين وبأنبيائه ورسله أشرك قوم موسى–عليه السلام– بالله حين طالبوه تنصيب آلهة يعبدونها من دون الله بعد أن نجّاهم الله من الغرق، رغبوا أن ينفصلوا بعقيدتهم ويفترقوا عنه إلى صنم يعبدونه ويتخذونه إلها ليكونوا بذلك من زمرة المفترقين الجاهلين، فكان الجهل بالعلم والدين والعقيدة والإتباع والاهتداء معا، قال تعالى: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قال الرازي في تفسير هذه الآية: " وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا شَاهَدُوا الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةَ الَّتِي أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ: ثُمَّ شَاهَدُوا أَنَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ وَخَصَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْوَاعِ السَّلَامَةِ وَالْكَرَامَةِ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ وَالْمَقَامَاتِ يَذْكُرُونَ هَذَا الْكَلَامَ الْفَاسِدَ الْبَاطِلَ كَانُوا فِي نِهَايَةِ الْجَهْلِ وَغَايَةِ الْخِلَافِ"[٩].

وقوم عاد لم يكونوا عن الجهل بالله ودينه ونبيِّه ببعيد، فقد استحبوا الجهل المُطْبَق بظلامه المركَّب على العلم والمعرفة بالله والهداية إلى الحق المطلق، وهو الله تعالى وعلمه المحيط، وقدرته النافذة، ومشيئته الشاملة، وجهلوا مهمة الأنبياء والرسل والكتب في هداية الناس وتزويدهم بالمعرفة بالرب المعبود والخالق الموجود، لكنه الجهل الذي استحكم في قوم عاد في الأحقاف فافترقوا عن نبيهم وطلبوا آلهة يعبدونها من دون الله بعد أن جاءهم العلم، بل لفرط جهلهم بالله وآياته استعجلوا عقاب الله عليهم، وما قدروا الله حق قدره، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ***

---

[٨] انظر: **المصدر السابق**، ص١٨٤، و**التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص٩١ وما بعدها.

[٩] **مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير**، محمد بن عمر فخر الدين الرازي، ج١٤، ص٣٤٩.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢١-٢٤].

في الآيات السابقة ما يشير إلى أن عدم العلم بوظيفة الرسل ومهمة النذر يصنع الاختلاف والافتراق، وهي طبيعة الجهل والجاهلين في كثرة الأسئلة والاقتراحات بغير علم، وهو ما يؤكده الزمخشري في تفسير جملة: ﴿ **وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾، إذ قال: " ولكنكم جاهلون لا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه"(١٠).

ويَصفُ الله تعالى للنبي-ﷺ- في القرآن الكريم جهل قومه القرشيين المشركين وافتراقهم عن الله وعنه-ﷺ- وعن الوحي المتلو وغير المتلو، وصلفهم في ذلك، لأنهم يجهلون معرفة الله حق المعرفة، ويجهلون الدين وحقائقه وآياته، حتى وإن أقسموا بالله بصيرورتهم إلى الإيمان شريطة تحقيق معجزات تخصُّهم كانوا قد طلبوها كما كانت لموسى وعيسى -عليهما السلام- لكن الكفر جاثم على عقولهم، والجحود مسيطر على قلوبهم، والجهل ظل هو الحكم عليهم، وهو الغالب على أخلاقهم وسلوكهم فاستمرُّوا على فراقهم للحق المبين، قال تعالى ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ [الأنعام:١٠٩-١١١].

ولو أن أهل الشرك حكّموا عقولهم، وعلِموا الحق بالعلم والإيمان ما وقعوا في الجهل المركب، وما كان لهم أن يجانبوا طريق المعرفة، أو يختلفوا حول الحق المبين ويفترقوا عن الرسول-ﷺ- والدين والقرآن ويُصرّون على جهلهم وكفرهم؛ وهذا ما يبيّنه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فهو" رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ الْمُقْتَضِي أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ إِيمَانَهُمْ: ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَا سَأَلُوا الْآيَاتِ إِلَّا لِتَوْجِيهِ بَقَائِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُصَمِّمِينَ عَلَى نَبْذِ دَعْوَةِ الْإِيمَانِ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّلُونَ بِالْعِلَلِ بِطَلَبِ الْآيَاتِ اسْتِهْزَاءً، فَكَانَ إِيمَانُهُمْ- فِي نَظَرِهِمْ- مِنْ قَبِيلِ الْمُحَالِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ إِيمَانَهُمْ آمَنُوا، فَالْجَهْلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: هُوَ ضِدُّ الْعِلْمِ "(١١).

وللمؤرخ عبد الملك الشيباني في كتابه العصبية تأصيل لهذا الداء العضال، وهو الجهل بالدين وآثاره الكارثية على الإنسان وانحراف سلوكه إلى دروب المعاصي في الحياة، وعدم المعرفة الحقة بالحق المبين، إذ قال:" الجهل: وهو الأصل والأساس الذي تتفرع منه معظم الضلالات والانحرافات والمعاصي، والجهل هنا هو جهل عام، أي جهل الإنسان بالحق والصواب وجهله بمعرفة الخير من الشر سواء على المستوى الديني أو العملي أو الواقعي: مثل غياب الوعي بحقائق الأمور الاجتماعية والواقعية، أو غياب الحكمة، وفقه التعامل مع كل ما يحيط ومن يحيط بالإنسان"(١٢).

وما أجمل ما قرره الحسن البصري، بل وما أوفقه بالمعنى الذي أردنا تقريره، فقد وضَعَنا على الداء العضال وهو الجهل وآثاره السيئة، وعلى العلاج الناجع وهو العلم وثماره الطيبة، وبينهما سلوك طريق العقيدة والعبادة الخالصتين لله الضمان الحقيقي من الزيغ والزلل والشقاق والافتراق، إذ قال:" الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، وَالْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ، فَاطْلُبُوا الْعِلْمَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِتَرْكِ الْعِبَادَةِ، فَاطْلُبُوا الْعِبَادَةَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِتَرْكِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ قَوْمًا طَلَبُوا الْعِبَادَةَ وَتَرَكُوا الْعِلْمَ حَتَّى خَرَجُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ طَلَبُوا الْعِلْمَ لَمْ يَدُلَّهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا- يَعْنِي الْخَوَارِجَ- وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُمْ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ وَلَمْ يَتَفَقَّهُوا فِيهِ حَسْبَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ (يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)(١٣)، "(١٤). وَفِي الْحِكَمِ: " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ ضَلَّ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِغَيْرِ أَصْلٍ زَلَّ"(١٥).

---

(١٠) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل**، محمود بن عمر الزمخشري، ج٤، ص٣٠٧.
(١١) **التحرير والتنوير المسمى تحرير المعنى السديد..**، محمد الطاهر بن عاشور، ج٨ القسم الأول، ص٧.
(١٢) **العصبية**، عبد الملك مرشد الشيباني اليمني ، ص١٧.
(١٣) **مختصر صحيح الإمام البخاري**، محمد بن ناصر الألباني،ج ٢٤٠/٤.
(١٤) **الاعتصام**، الشاطبي، تحقيق الهلالي، .ج ٦٨٢/٢ .
(١٥) **موارد الظمآن لدروس الزمان**، عبد العزيز بن محمد السلمان، ج٢، ص٧.

ولقد جاء عن ابن تيمية ما يثبت أن من أنواع الجهل بالدين: البدعة والابتداع التي هي صنو التفرق والافتراق المقابل لسنة الاتفاق والاجتماع؛ إذ قال: " والبدعة مقرونة بالفرقة كَمَا ان السّنة مقرونة بِالْجَمَاعَة فَيُقَال أهل السّنة وَالْجَمَاعَة كَمَا يُقَال أهل الْبِدْعَة والفرقة.. فَإِن الْبِدْعَة مَا لم يشرعه الله من الدّين، فكل من دَان بشيء لم يشرعه الله فَذَاك بِدعَة "[١٦].

وقد نهى الله تعالى عن مفارقة الدين الحق، وحذّر من مخالفته والابتداع فيه ما ليس منه وكان مخالفا له، ودعا إلى إقامة الدين والاجتماع تحت رايته والاعتصام به، وأثبت أن الافتراق عن الحق ما كان إلا بسبب ركوب المفترقين موجة الجهل بعد أن جاءهم العلم بغيا بينهم، قال تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام:١٥٩] ، وقال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ *وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** ﴾ [الشورى:١٣-١٤].

قال ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين: "وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللَّهِ وَكَانَ مُخَالِفًا لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا افْتِرَاقَ، فَمَنِ اخْتَلَفَ فِيهِ ﴿**وَكَانُوا شِيَعًا**﴾ أَيْ: فِرَقًا كَأَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَهِيَ الْأَهْوَاءُ وَالضَّلَالَاتُ، فَإِن اللَّهُ قَدْ بَرَّأَ رَسُولَهُ مِمَّا هُمْ فِيهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشُّورَى:١٣] ..فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّمَسُّكِ بِشَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْمُتَأَخِّرِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَضَلَالَاتٌ وَجَهَالَاتٌ وَآرَاءٌ وَأَهْوَاءٌ، الرُّسُلُ بُرَآء مِنْهَا"[١٧].

وكأنَّ الإمام مالِك –رحمه الله– عندما قال: " إذَا قَلَّ العلمُ ظهرَ الجفاء وإذا قلت الآثارُ كثرت الأَهواء"[١٨]، فإنما أراد أنه إذا قلّ العلم بالدين والمعرفة به عموما عند المسلمين عامتهم وخاصتهم فإن أمرهم آيل إلى خطاب الفظاظة والغلاظة والجفاء المؤدي إلى الاختلاف والافتراق، وأنه إذا قلت حصيلة النصوص الشرعية من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة الثابتة في عقلية المسلم، وعند العاملين الإسلام كان الجهل هو القائد، والعمل بالأهواء هو المعتمد، والفرقة بين المسلمين هي السائدة! وهي مُعادَلة إسلامية يعلمنا إياها الإمامان: مالك والحسن البصري في التنمية الشرعية والعلمية المتوازنة، وفي بناء الشخصية المسلمة المتكاملة المؤهَّلة علميا، القادرة على محاربة الجهل بالعلم الصحيح المؤصَّل شرعيا، وإطفاء نار الافتراق المناهض للاجتماع، ورفض لابتداع المعاكس للعلم والمعرفة، وذلك الاطفاء يكون بماء العلم الديني والاتفاق البيني فينقلب نار التفرق بردا وسلاما بين ذات البين الاسلامية.

ثانيًا: اتباع الهوى الشخصي والبغي في تقديم الأهواء والآراء والأفكار على الأدلة الشرعية:

اتباع الهوى النفسي المشرِّع، وترك الكتاب السماوي المحفوظ، والسنة النبوية الصحيحة الثابتة، والشريعة الإسلامية الغراء، هو بغي واضح وافتراق صريح عن الوحي وعن الدين، وأساسه ضعف في التدين والاعتقاد والتلقي لدى المسلمين عامة وخاصة، وهو إخضاع العقل والقلب ومقررات الإسلام وثوابته وعقيدته وشريعته لتحقيق الرغبات الشخصية والهوى المتبع المطاع من دون الله، كما أنه انفلات عقدي وانسلاخ خلقي ومفارقة لتعاليم الإسلام الصحيحة الثابتة ثم الاستغلال السلبي للأدلة الشرعية ومصادر الدين وأصوله وتطويعها للآراء والأهواء والأفكار والابتداع والإضلال، بل ومحاربة لله ولرسوله وللمؤمنين.

---

[١٦] **الاستقامة**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق، محمد رشاد سالم، ج ٤٢/١.
[١٧] **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير: ٣٧٧/٣.
[١٨] **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية:١٦٣/٢٠، و **درء تعارض النقل والعقل**، ابن تيمية ، تحقيق: رشاد سالم، ج١،ص٢٠٧.

فما ذكر الهوى في القرآن الكريم إلا في معرض الذم والتقبيح، وما كانت مواضع وروده في الآيات إلا دالة على ذمّه وتحريمه والتشنيع على أهله، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾ [القصص: ٥٠]. ويروي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ عَنِ الْأَهْوَاءِ: أَيُّهَا خَيْرٌ؟ فَقَالَ: مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَمَا هِيَ إِلَّا زِينَةُ الشَّيْطَانِ وَمَا الْأَمْرُ إِلَّا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ. يَعْنِي مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ " [١٩]، وقد قال بعض السّلف: "شرّ إله عبد في الأرض الهوى"[٢٠].

ولقد أنزل الله القرآن الكريم على رسول الإسلام محمد –ﷺ– وفيه ذم صريح لليهود والنصارى من أهل الكتاب وغيرهم، الذين أحبوا ذواتهم، واتبعوا أهوائهم، وغلّبوا الدنيا على الآخرة، وسلكوا طُرق التفرق المذموم رغم أن العلم قد جاءهم، والبينات والحجج الواضحة القاطعة قد قامت بينهم، ومن تلك الآيات القرآنية الزاجرة عن الاختلاف، والمحذرة والناهية عن الافتراق المذموم بعد ظهور الحق والهدى، قال تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾[البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية:١٦–١٨]. فتبين من خلال هذه الآيات أنها تذم بشدة اتباع الأهواء وطرق الغواية والإضلال وسبل الاختلاف المذموم ظلما وبغيا بعد أن جاءهم الهدى من الله في أي زمان ومكان وحال وهو ابتداع مكتمل الأركان، وهو اتباع للأهواء مكتمل الأركان كذلك.

جاءت الآية: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ بخطاب قوي البيان، شديد الوضوح، صريح الدلالة، فيه الأمر الصارم بواجبية اتباع الشريعة، والنهي الجازم عن اتباع الأهواء أو الابتداع في الشريعة والافتراق عنها؛ لأنه ليس للمسلم إلا اتباع لشريعة ربانية واحدة وهي التي جعلها الله لهذه الأمة، ومن يبتغ غير ذلك فإنما هي طرائق أهواء الذين لا يعلمون التي مصدرها الجهل، قال صاحب الظلال في معنى الآية: " وهكذا يتمحض الأمر. فإما شريعة الله. وإما أهواء الذين لا يعلمون. وليس هنالك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون! والله– سبحانه– يحذر رسوله– ﷺ–أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون،.. إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل. وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء" [٢١].

وهذا السلوك لأهل الابتداع واتباع الأهواء والأفكار هو استحداث ظاهر في الدين من جهة المبتدعين، حيث تركوا الدين والأدلة الشرعية الثابتة ولم يأخذوا بها، وشرَّعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله، وهو كله يُعد من أسباب ظهور هذا التفرق المذموم والهوى المطاع في أتباع الدين الاسلامي، وفي أمم الأديان السابقة، وكل ما يحدث من هذا التفرق فهو نوع من أنواع الابتداع والضلال والإضلال، والابتداع هو نتاج اتباع الأهواء النفسية المنفلتة التي تتحكم في الأفراد والجماعات والحكام والمحكومين على السواء، والعلماء وغيرهم، قال الشاطبي: "

---

[١٩] **الاعتصام**، الشاطبي، تحقيق الهلالي، ج٢/ص٦٨٨،
[٢٠] **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**، تأليف عدد من المختصين بإشراف صالح بن حميد:٩/ ٣٧٧٠.
[٢١] **في ظلال القرآن**، سيد قطب إبراهيم، ج٥، ص٣٢٢٩.

سُمِّيَ أَهْلُ الْبِدَعِ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ لِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فَلَمْ يَأْخُذُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مَأْخَذَ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهَا، حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْهَا، بَلْ قَدَّمُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَاعْتَمَدُوا عَلَى آرَائِهِمْ، ثُمَّ جَعَلُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مَنْظُورًا فِيهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ"(٢٢).

وقد كان ابن عباس –رضي الله عنهما– موفقا في تقريره لأصل الهوى، وحكيما في تحرير مسألته وحكمه عليه بكل وضوح وصراحة، إذ قال لرجل سأله: (الهوى كله ضلالة)، وربما كان هذا الرجل قد أخطأ في التعبير وهو يخاطب ابن عباس ويتصنَّع له ويُجامله:، فقد جاء في كتاب الإبانة الكبرى أن رجلا قال لابن عباس: الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم: فقال عبد الله بن عباس: الهوى كله ضلالة(٢٣).

ولعظيم شأن اتباع الأهواء الشخصية والآراء والأفكار الضالة وتقديمها على الحق المبين وشريعة رب العالمين حذَّر الله الأنبياء والرسل من اتباع هذه الأهواء وأصحابها وحكم عليهم بالضلال أن فعلوا، ورتَّب على الفعل العذاب الشديد؛ فقال سبحانه وتعالى مخاطبا داوود– عليه السلام :﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾[ص:٢٦]. قال الأمام الشوكاني في تفسير هذه الآية من سورة ص في كتابه فتح القدير:" وجُملة إنَّ الذين يضلون عن سبيل اللَّه لهم عذابٌ شديدٌ تعليلٌ للنَّهي عن اتباع الهوى والوقوعِ في الضلال"(٢٤).

وفي سورة المائدة خاطب الله النبي محمد– ﷺ في سياق وجوب التعامل مع الجميع من أجيال أمته بالحق المبين، والحكم بينهم بما أنزل الله في القرآن الكريم، مع التوجيه الصارم بالنهي عن اتباع أهواء البغاة أهل الفتنة الذين يردُّون حكم الله ورسوله، ويبْغُون حكم أهواء الجاهلية، قال تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [الآيات:٤٨–٥٠].

وعليه، فإن اتباع الأهواء أساس الفتن والبلايا والمعاصي وفي مقدمتها الابتداع في الدين وزرع الفرقة والتفرق بين المسلمين، الأمر الذي ينبئ عن ضعف في الإيمان وفي اتباع الدين الحق، قال ابن رجب:" فَجَمِيعُ الْمَعَاصِي إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ تَقْدِيمِ هَوَى النُّفُوسِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾[القصص: ٥٠]. وَكَذَلِكَ الْبِدَعُ، إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ تَقْدِيمِ الْهَوَى عَلَى الشَّرْعِ، وَلِهَذَا يُسَمَّى أَهْلُهَا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ. وَكَذَلِكَ الْمَعَاصِي، إِنَّمَا تَقَعُ مِنْ تَقْدِيمِ الْهَوَى عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَحَبَّةِ مَا يُحِبُّهُ. وَكَذَلِكَ حُبُّ الْأَشْخَاصِ: الْوَاجِبُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..وَمَنْ كَانَ حُبُّهُ وَبُغْضُهُ وَعَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ لِهَوَى نَفْسِهِ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي إِيمَانِهِ الْوَاجِبِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَقْدِيمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا فِيهِ رِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى هَوَى النُّفُوسِ وَمُرَادَاتِهَا كُلِّهَا"(٢٥).

وأكثر من حقق وحرر في مسائل الفرقة والافتراق والبدعة والابتداع هو ابن تيمية –رحمه الله– وتحذيراته شديدة وقوية للأمة من اتباع الهوى المفضي إلى الفرقة في ضوء أوامر القرآن الكريم ونواهي السنة مبيِّنا ومستنبطا: أن من التزم السُّنة فقد حصَّن نفسه من هوى النفس والشيطان، مشيرا إلى أن أصحاب البدع هم أصحاب الأهواء وهم شر البلية والبرية، ففي مجال وجوب اتباع الرسول –ﷺ– وسنته الصحيح الثابتة قال: " لُزُوم السُّنة هو يحفظ من شَرّ النَّفس والشيطان، بدونِ الطّرق المبتدعة؛ فإن أصحابها لابد أن يقعوا فِي الآصار والأغلال، وإن

(٢٢) **الاعتصام** ، الشاطبي، تحقيق الهلالي، ج٦٨٢/٢.
(٢٣) **الابانة الكبرى**، عبيد الله بن محمد بن حمدان ابن بَطَّة العكبري، تحقيق، رضا معطي وآخرون :٣٥٥/١.
(٢٤) **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني: ٤٩٣/٤
(٢٥) **جامع العلوم والحكم**، ابن رجب الحنبلي، ج٢، ص٣٩٧-٣٩٨. بتصرف يسير جدا بالحذف.

كانُوا متأولين فلابد لهم من اتباع الهوى، ولهذا سمي أَصحاب الْبدع أَصْحَاب الْأَهْوَاء. فَإِن طَرِيق السّنة علم وَعدل وَهدى، وَفِي الْبِدْعَة جهل وظلم، وفيهَا اتِّبَاع الظَّن وَمَا تهوى الْأَنْفس"[٢٦]، وتحقيقاته وتأكيداته في هذا المجال تطول.....

وهو خطاب الله الناهي والكاشف لعقيدة وسلوك المفترقين عن الدين والحق المبين ورسول رب العالمين من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين أرباب الهوى المضلين، قال تعالى:﴿ **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى:﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [محمد:١٤]، وقال تعالى:﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [محمد:١٦]، وقوله تعالى:﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون:٧١]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:١٤٥].

المبحث الثالث

التَّعصُّبُ للآبَاءِ والآرَاءِ والعَصَبِيَّة للقَبِيلَة والجَمَاعَة

أولاً: التعصب المذموم لمنظومة الآباء والآراء والأقوال والقادة والمذاهب والطوائف:

إن التعصب للآراء والأقوال والأفكار والكتابات التي يصنعها الأشخاص بلا حق بيِّن، ولا وجه معتبر، ولا دليل ثابت، وسواء كان هذا التعصب للغير أو للذوات فهو سبب واضح في وقوع الفرقة، ومنطلق للتفرق والافتراق عن الأصول الدينية والنصوص الشرعية في القرآن والسنة والإجماع، ومن ذلك الولوج في التعصب لأقوال الآباء والأجداد والمنظرين والمعظمين والمؤلفين ومذاهبهم وطوائفهم وقادة الأحزاب والجماعات والتنظيمات والفرق ونظرياتهم وأديانهم وأندادهم من الجمادات والأحياء والأموات والأشخاص والأعيان بغير سلطان أتاهم من الله، وهو مانع قوي لأصحابه من اتباع الحق المبين، والأنبياء المرسلين، والهُداة المبشرين، والنُّذر المتعاقبين، وحجاب سميك عن الرؤية الشرعية السليمة للآيات الربانية المقروءة والمشاهدة ، وقد ذمّ الله تعالى التعصب للأشخاص والمناهج الباطلة، والأفكار الهدامة، فقال:﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف:٢١-٢٣].

قال الطبري في تفسير هذه الآية:" إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين، وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم نفعل كالذي فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون؛ يقول جلّ ثناؤه لمحمد -ﷺ-: فإنما سلك مشركو قومك منهاج من قبلهم من إخوانهم من أهل الشرك بالله في إجابتهم إياك بما أجابوك به، وردّهم ما ردّوا عليك من النصيحة، واحتجاجهم بما احتجوا به لمُقامهم على دينهم الباطل"[٢٧].

وقال يوسف القرضاوي في المتعصب للرأي الشخصي وللمذهب بشيء من التفصيل والتوسع والشمول:" وأول ما ينبغي أن يتحرر المرء منه: تعصبه لرأيه الشخصي، بحيث لا ينزل عنه ولو ظهر له خطؤه، وتهاوت شبهاته أمام حجج الآخرين، بل يظل مصرا عليه، مستمسكا به، مدافعا عنه، انتصارا للنفس، ومكابرة للغير، واتباعا للهوى، وخوفا من الاتهام بالقصور أو التقصير.. وهذا التعصب من دلائل الإعجاب بالنفس، واتباع الهوى، وهما من أشد المهلكات خطرا.. ومن التعصب المذموم: التعصب للمذهب، شأن غلاة المقلدين الذين يكادون يضفون على مذاهبهم العصمة، وعلى أئمتهم القداسة"[٢٨].

---

[٢٦] **مجموع الفتاوى**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: ٥٦٨/١٠.
[٢٧] **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر:٥٧٢/٢٠.
[٢٨] **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم**، يوسف القرضاوي، ص١٣٠-١٣١.

وكم هي الآيات في القرآن الكريم التي جاءت وذكرت للأمة صورا ونماذجا لهؤلاء المتعصبين لأنفسهم أو لغيرهم، ممن يتعصبون لهم كالآباء والأجداد بالتقليد والتعصب الأعمى الفردي منه والجماعي، وفي هذه الآيات إرشادات ممزوجة بالتحذير لأجيال الأمة أن تقتدي بهم أو تقلدهم في تعصباتهم المقيتة، ومسالكهم الضالة، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة:٩١]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة:١٧٠-١٧١]، وقال تعالى:﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [المائدة:١٠٤].

فقليل هم أولئك اليهود والنصارى أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد-ﷺ-، وكثيرون هم المفترقون والمخالفون لما كانوا ينتظرون من البعثة والوحي وطبيعة الرسول المرسَل أعربي هو أم أعجمي؟، بل الغالبية الغالبة هم الذين كذَّبوا بالإسلام والقرآن والرسول-ﷺ- بعد ما جاءهم، وكان قد سبق إليهم العلم والبينات، ولكنهم تعصبوا لطوائفهم وأشخاصهم ومعتقداتهم بغيا بينهم، بل وفرضوا الافتراق على غيرهم من العرب والعجم! ونسبة عدد المؤمنين من أهل الكتاب إلى حجم وعدد الكافرين منهم تكاد تكون بالعشرات.

وعندما فسَّر التابعي مقاتل بن سليمان قوله تعالى: ﴿**وما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ [البينة:٤]، وهو يشرح قصة اليهود والنصارى وافتراقهم عن نبي الإسلام ورسوله محمد -ﷺ- إذ قال :" لم يزل الذين كفروا مجتمعين على تصديق محمد-ﷺ- حتى بُعث، لأن نعته معهم في كتبهم فلما بعث الله-ﷻ- من غير ولد إسحاق اختلفوا فيه فآمن بعضهم: عبد الله بن سلام وأصحابه من أهل التوراة، ومن أهل الإنجيل أربعون رجلا منهم بحيرى، وكذَّب به سائر أهل الكتاب[٢٩]، وكذلك أتباعهم يفعلون، وأشياعهم يفترقون ويُفرِّقون في أبناء الأمة الإسلامية وفي أجيالها المتعاقبة من الماضي حتى الحاضر ولا يزالون يفعلون.

وبناء على السابق فإن التعصب المذموم لمنظومة الآباء والآراء والأقوال والقادة والمذاهب والطوائف هو داء عضال يقف وراء ما يحل بأمتنا الإسلامية من اختلاف ثم افتراق، ثم تخاصم، ثم تنازع، وما هو أشر من ذلك وهو الصراع والاقتتال، تجت مسميَّات ورايات مختلفة المعاني والوسائل متحدة الأهداف والغايات

ثانيًا: العصبيَّة الجاهليَّة للقوميَّة والإقليم والبلد والقبيلة والحزب والجماعة والنَّسَب:

نعني بالعصبية هنا تلك العصبية المذمومة التي تخلق الفرقة والتفرق والافتراق المذموم بين المسلمين أبناء الأمة الواحدة، نطرقها بمدلولها العربي السيئ قبل الإسلام، واستمرارها بعد أن جاء الإسلام وحاربها وحاصرها دينيا وخلقيا واجتماعيا في النظرية والسلوك، حيث عادت في الأمة الإسلامية تبصبص بأذنابها في الوصيد، وترفع رأسها من جديد، فتأتي عصبيّة اليوم لتقلد العصبية بالأمس، وتقتدي بها وتسلك خطواتها حذو القذة بالقذة، ولم تعد هذه العصبية قاصرة في مفهومها على العصبية للقبيلة وعصبتها فحسب، بل توسعت مفهوما، وتعددت أو تنوعت واقعا " فأطلقت أنواع أخرى من التعصبات، بحسب الغرض الذي نشأت لأجله، والسبب الذي اعتمدت عليه"[٣٠].

فالعصبية اليوم هي عصبيات بلا حدود في النوع والذم، مثل العصبية للقبيلة، أو القومية، أو الشعوبية، أو القوم، أو الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الإقليم، أو الدولة، أو البلد، أو المذهب، أو الطائفة، أو الاعتقاد، أو الوطن، أو الحزب، أو الجماعة، أو النسب، أو الجنسية، أو القوة والاقتصاد والصناعة، أو الجغرافيا، أو الحاكم الآمر وحاشيته، أو الأسرة المالكة القابضة، وبهذا تكون العصبية بهذا المفهوم الواسع قد تعددت وتكاثرت وتطورت، وبناء على هذا فقد شكلت هذه العصبيات سببا كبيرا وشاملا في نشأة التفرق المذموم

[٢٩] **تفسير مقاتل بن سليمان**: أبو الحسن الأزدي البلخي، ج ٤/ ٧٨٠.
[٣٠] **العصبية القبلية من المنظور الإسلامي**، خالد بن عبد الرحمن الجريسي، ص٢٣.

الحاصل بين المسلمين وإعادة انتاجه ورعايته وتغذيته، الأمر الذي قد عمّ ضرره أوساط المسلمين وابتلاهم في الجانبين الأفقي والرأسي، والعوام منهم والخواص على السواء.

وبهذه العصبيات الشاملة أصبح المسلمون يعيشون في أمتهم على أساس من معايير القبلية والقومية والمناطقية والمذهبية والحزبية والجماعاتية والجغرافية والجهوية والقرائبية والسلطوية، يقيمون فيهم سنن الجاهلية، ويحيون شعاراتها بعد اندثار، مع أن القرآن الكريم قد استبعد تماما في آياته أن يصدر مثل هذا الولاء الجاهلي من مؤمنين بالله حق الإيمان، ومن مسلمين حقيقي الإسلام قد أسلموا جنابهم لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، بل وصرح بانعدام مثل هذا السلوك المشين ولو كان على مستوى الأسرة الواحدة وأقرب الأقربين، فضلا عن العشيرة والأباعد أفرادا وجماعات وكيانات وجهات ومنظمات وأماكن ومستويات.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة:٢٣-٢٤]. وبهاتين الآيتين تسقط العصبيّات الجاهلية في أوساط المؤمنين على مستوى العلاقات البينية الداخلية للمسلمين، وعلى مستوى العلاقات القائمة بين المسلمين والمشركين من العرب والكفار من الأعاجم جملة وتفصيلا وتبقى العقيدة هي الميزان والمعيار، جاء في الظلال: " وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة. وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله. فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل المقطوع والعروة منقوضة" [٣١].

إن غياب هذه المنهجية القرآنية الدينية والفكرية والاجتماعية في عقليات المسلمين في الوقع التطبيقي كانت سببا لظهور العصبيات الجاهلية البغيضة في العلاقات البينية وكانت سببا في نشأة التفرق المذموم، وبهذه الممارسات" فإن المجتمعات ستغدو مقطعة الأوصال، تكرّس فوارق عنصرية، وقبيلة، وقومية، بل وجغرافية فيما بينها، وهذه الفوارق الجاهلية هي التي ينفث منها العدو سمومه فينا ويسود بها علينا، مما يُمكّن لنزعة الخلاف فيما بيننا، وهو ما حرص الإسلام على تجنبه، وحذَّر منه، ودعا إلى نبذه" [٣٢].

ما سبق من المعاني يؤكده ما جاء في السنة النبوية الشريف من أحاديث شريفة، منها قول نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم: (كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان)[٣٣] ، وفي رواية:(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ)[٣٤]. وقال- ﷺ- عن العصبية الجاهلية ودعاويها ومخرجاتها: (دعوها فإنها منتنة) [٣٥].

وفي الحديث الثابت عنه – ﷺ- أنه قال: (أبغضُ الناس إلى الله ثلاثة) ثم ذكر منهم (وَمُبْتَغٍ فِي الإِسلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّة)[٣٦]، وفي الحديث: (من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتل فقتلته جاهلية) [٣٧]، وفي الحديث: (

---

[٣١] **في ظلال القرآن** ، سيد قطب،ج٣، ص١٦١٥.
[٣٢] **العصبية القبلية من المنظور الإسلامي**، خالد الجريسي، ص ٢١.
[٣٣] **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق المعروف بالبزار، ج٧، ص٣٤٠.
[٣٤] **سنن أبي داوود** ، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، ج٤،ص٣٣١ .
[٣٥] **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ج٦، ص١٥٤، **وصحيح الإمام مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري، ج٤، ص١٩٩٨.
[٣٦] **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، ج٩، ص٦.

ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية) [٣٨] ، وقد ترددت مصطلحات العصبية على لسان النبي –ﷺ– في أكثر من حديث وموضع وحال بالتصريح والتلميح وباللفظ والمفهوم.

ومضمون الأحاديث أن من يستدعي سُنَّة من سُنن الجاهلية وعصبياتها وشعاراتها ودعاويها بعد زوالها وأندثارها بوجود الإسلام أيا كانت تلك العصبيات، عقائدية دينية، أم اجتماعية اقتصادية، أم فكرية وثقافية، أم سياسية وحزبية، أم قومية ووطنية، أم تاريخية وجغرافية، فهو داعية إلى التفرق والافتراق المذموم، وهو صاحب بضاعة مزجاة، بل منتنة، أو هو النتن نفسه وذاته، ويكفيه تشنيعا أنه كالجعلان يدهده القذر والعذرة بأنفه، بل ويستحق أن يكون من أبغض الناس إلى الله بصريح الحديث الصحيح.

قال عبد الملك الشيباني في كتابه العصبية: " لا يجوز للمسلم أن يقف موقفا يعين أو يقاتل أو يغضب أو يدعو، أو ينصره بالباطل من ينتسب أو ينتمي إليهم أو يرتبط بهم بأي آصرة، ويجب أن تكون آصرة العقيدة هي وحدها منطلقه الأول والأخير ابتداء.. ومَسِيرا.. وانتهاء في كل أعماله وأفعاله وأقواله وحركاته وسكناته، بل حتى في مشاعره وعواطفه ووجد انه. وإن أي موقف لا يحقق هذا ولا ينطلق منه فهو باطل آثم دون شك ولا ريب فماذا بعد الحق إلا الضلال"[٣٩].

المبحث الرابع

الجِدَال والمِرَاء بغيْر الحقِّ والاخْتِلاف المكروه حوْل القُرْآن

أولاً: الجدال والمراء بغير الحق حول الأصول والثوابت الدينية فضلا عن الفروع والجزئيات:

جاء الجدال والمراء في القرآن الكريم في تسعة وعشرين موضعا [٤٠]، وفي أكثر من ستة عشر سورة بتفاوت بينها كثرة وقلة، فضلا عن مواضع المراء واستعمالاته بمعنى الجدال والحجاج بالباطل [٤١]، وجذور الجدال واستعمالاته اللغوية والقرآنية ومشتقاته غالبيتها أتت في معرض الخطاب لأهل الكتاب بالنهي عن التفرق، وكذلك في معرض الخطاب للمشركين والمنافقين والمؤمنين كي لا يقع الجميع فيما وقع فيه أهل الكتاب. والذين خاضوا الجدل والمراء المذموم هم من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، وقليل من المؤمنين الصادقين[٤٢].

وسجل القرآن الكريم أهم محاور الجدال، ومنها مع الله، وفي الله، ومع أنبيائه ورسله جميعا، وكتب الله السابقة، والقرآن الكريم خاتم الكتب على خاتم الرسل، وفي آيات الله الناطقة والمشاهدة، قال تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [غافر:٥] ، وقال: ﴿ **وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [الحج:٦٩]، وقال تعالى: ﴿ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** ﴾ [الأعراف:٧١]، وقال: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا** ﴾ [الكهف:٥٦]، وقال ﴿ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**﴾ [غافر:٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا**﴾ [النساء:١٠٧].

---

[٣٧] **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، ج٢، ص١٣٠٢، **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب بن علي النسائي، ج٧، ص١٢٣ ، و **الفتن**، نعيم بن حماد، ج١، ص١٦١.

[٣٨] **سنن أبي داوود**، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، ج٤، ص٣٣٢. و**شرح السنة** ، أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي، ج١٣، ١٢٢.

[٣٩] **العصبية**، عبد الملك مرشد الشيباني، ص٨.

[٤٠] انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، باب الجيم، ص ١٦٥.

[٤١] انظر، **المصدر السابق**، ص ٦٦٥، باب الميم.

[٤٢] كان دور أهل الكتاب هو إثارة قضايا عقدية وجدلية ومسائل خلافية أو غامضة ومبهمة يعلموها من التوراة والانجيل يطرحونها على كفار قريش ليسألوا بها محمد -ﷺ- بغية تعجيزه أو يسألوها هم مباشرة، ويثيرون حروب جاهلية قبلية ترتب عليها نصر وغلبة لقوم دون قوم بين الذين اسلموا بغية التنازع والاقتتال ومن ثم الافتراق عن الاسلام.

وفي تقريرنا لهذه المعاني دلالة واضحة على أن طبيعة المراء والجدال الغالبة لا يكون إلا جدالا ومراء في الباطل، وفي مجالات العناد والجحود، وغمط الحق والنعمة والمنعم، وفي الذين يختانون أنفسهم، وحول عبادة الأصنام والأنداد من دون الله. والغاية من الجدال والمراء كما يبينها القرآن الكريم هي نصرة الباطل، ورفع راية الشر وأهله، ومحاولة دحض الحق ودمغه، وصد أصحاب الحق ورده عليهم، وإنكارا لدعوة الله وأنبيائه ورسله وآياته ومعجزاته، وأساس الجدال ومنطلق المراء يصبُّ في جدال الله ورسوله وآياته بغير علم، وبلا حجة أو بينة، وبغير سلطان من الله أتاهم.

يؤكد هذه المعاني كثير من الآيات القرآنية ومنها، قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ** ﴾ [الحج: ٣]، وقاله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ** ﴾ [الحج:٨]، وقال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ** ﴾ [لقمان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ **وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾[الرعد:١٣]، وقال:﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ** ﴾ [غافر:٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ [الأنعام:٢٥]، وقوله تعالى:﴿ **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾[الزخرف:٥٨].

والجدال يعود إلى أصل التكوين العقلي للناس وإدراكاتهم وطبيعتهم، فهم متفاوتون في القدرات على الأفهام الصحيحة والخاطئة، وعلى الإفهام للآخرين، وعليه فإن الإنسان جدليٌ بالطبع، يُكثر الجدل والجدال ويستعذب الاختلاف والخصومة والمنازعة والمراوغة والمغالبة لغاية إلزام الخصم بمقرراته وقناعاته، وهذا هو وصف الله له في القرآن الكريم، قال تعالى﴿ **وكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا** ﴾ [الكهف:٥٤]، وقال تعالى:﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ**﴾[الكهف:٥٦]، وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف:٥٧-٥٨]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[غافر:٥٦].

وما ضر الأمة الإسلامية اليوم وفرّق كلمتها وأصابها في مقتل أمر ذو بال كالجدل الخصيم، والمراء العقيم، وما أصابها من مرض عضال أتي على مفاصلها وأنهكها، وعلى عظامها وفتتها، وعلى أعضائها فقسمها، وعلى شرياناتها فمزقها وعطلها كمرض الجِدال الفتاك، والمراء القاتل، والحوار المهدور وسيلة وهدفا وغاية في مجالات العقيدة الإسلامية، والسياسة الشرعية، والأنظمة الحادثة، والقضايا الخلافية البينية بين الأحزاب والجماعات والتنظيمات على مستوى الشعوب من جهة، وبين هذه المنظومات السياسية والدينية والأنظمة الحاكمة من جهة أخرى.

لذلك جاءت الرسالات السماوية بالكتب والأنبياء والرسل، وجاء الإسلام بالقرآن وتعزّز بالرسول محمد -ﷺ- فكانت الشريعة الإسلامية الحاسمة للجدال المذموم والخصام السيئ، والمراء المفرِّق، جاءت ونهت عن الجدل والمراء المذموم الصانع للتفرق المذموم؛ لما لهما من أثر في إذكاء ضغينة القلوب وإشعال حطب الافتراق، قال تعالى:﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام:١٥٣]. عن ابن عباس قال:" أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّمَا أُهْلِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ "[٤٣].

قال ابن القيم في إعلام الموقعين: وقد أخبر النبي -ﷺ- أنَّ هلاك الأمم من قبلنا إنما كان باختلافهم على أنبيائهم، فعن واثلة بن الأسقع قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- ونحن نتنازع في شيء من الدين، فغضب غضبا شديدًا لم يغضب مثله، قال: ثُم انتهرنا، قال: يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفُسكم وهج النَّار، ثم قال: أَبِهذا أمرتم؟ أو ليس عن هذَا نُهيتم؟ إنَّما هلك من كان قبلكم بهذا» [٤٤].

---

[٤٣] **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري، ج١١، ص٤٣٨، و**تفسير القرآن الحكيم(المنار)**، محمد رشيد علي رضا ج٨، ص١٧٣.
[٤٤] **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية: ١٩٨/١.

خلاصة الأمر فإن الجدال والمراء بغير حق، وبغير التي هي أحسن على المستوى البيني للمسلمين ، وعلى المستوى الخارجي لغير المسلمين هو مهمة شيطانية، وسواء الشيطان الحقيقي إبليس وذريته من الجن، أو الشياطين المجازيين من ذرية آدم من الإنس، فالشياطين يوحون ببذور الفرقة والتفرق والافتراق إلى أوليائهم زخرف القول غرورا، وفي مقدمة هؤلاء الأولياء أهل الكتاب الذين جاءهم العلم، وجاءتهم البينات ثم جادلوا وكفروا، والذين في قلوبهم زيغ من أمة المسلمين لينزغ الشيطان وأولياؤه بين أبناء الأمة الواحدة، وأصحاب الدين الواحد، وقد خاطب الله المسلمين في القرآن الكريم محذرا إياهم مكائد الشيطان عامة، وفي هذا المجال بصفة خاصة، فقال: ﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾[الأنعام، من الآية:١٢١]. وقال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ**﴾ [الحج: ٣]، وقال تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [غافر:٥٦].

ثانياً: الاختلاف والمراء في القرآن بغير الحق يصنع الضَّرر الفكري والتَّفرق والتخاصم والتنازع:

القرآن الكريم في الأمة الاسلامية هو كتاب رب العالمين ودستور المسلمين والمرجعية العليا في الدين كذلك الرسول –ﷺ– وسنته الصحيحة الثابتة المبيِّنة للقرآن بالقول والفعل والنظرية والتطبيق، وعليه فالقرآن الكريم في التعريف والوصف هو " الكلام المُعجِز المُنزَّل على قلب النبيِّ –ﷺ–، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، والمتعبَّد بتلاوته، من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس"[٤٥]، فلا شك ولا ريب ولا اختلاف ولا جدال ولا مراء فيه لا في الجملة ولا في التفصيل، ويستوي في ذلك أطول سورة منه وأقصرها، وأوسع آية منه وأوجزها، قال تعالى: ﴿**الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة:١-٢]، وقال تعالى:﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء:٨٢].

فالقرآن هو من عند الله لا يَختلِف في بنيَّته، ولا يُختلَف فيه وحول آياته، لأنه كلام الله عز وجل وكفى، لذلك أي بادرة جدال أو نواة اختلاف أو مراء بغير حق في آياته هو تهديد للأمة الاسلامية برمتها، في وحدتها ووحدة مصدرها، وتقويض لعروتها الوثقى وحبلها المتين الواصل بالله، وهو الأمر الذي كان يفزع له النبي –ﷺ– ويكرهه وينهى عنه ويغضب له أشدّ الغضب، فيأمر أصحابه بالتوقف عن القراءة القرآنية بهذه الحالة المؤدية إلى الاختلاف والفرقة والخصام المحرّم.

وقضية المراء والجدال الذي حدث بين بعض الصحابة وهم على باب رسول الله –ﷺ– لا تخفى على الدارسين المسلمين، فضلا عن الباحثين المتخصصين، ذلك الاختلاف والتخاصم والتنازع حول القرآن الكريم وبعض آياته المتشابهات والتي يتوهم البعض أنها متباينات ومتنافيات ومتعارضات وهي غير ذلك، وفي قضية القضاء ومسائل القدر، الأمر الذي أغضب رسول الله –ﷺ– أيما غضب، وأخرجه من بيته فزعا للأصوات العالية المتجادلة المتمارية لدى الباب بين صحابته، فوصف الراوي هيئة وجهه –ﷺ– وحالته الغاضبة المحمرَّة بقوله: كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ من الغضب؟!.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا نَتَذَاكَرُ الْقُرْآنَ عِنْدَ بَابِ رَسُولِ اللهِ –ﷺ– يَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ ، وَهَذَا بِآيَةٍ، " فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، أَلِهَذَا بُعِثْتُمْ؟ ، أَمْ بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[٤٦].

وفي رواية_عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَسَمِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَخَرَجَ فَكَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ ، فَقَالَ: (بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا ، فَانْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَانْظُرُوا الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

[٤٥] أنظر: **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني ج١ص١٩-٢١.
[٤٦] **المعجم الأوسط**، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، ج٦، ص١٤٧، وج٨، ص٢٢٥.

عَنْهُ)[٤٧]، وفي روايات أخرى: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ– خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْقَدَرِ وَهَذَا يَنْزِعُ آيَةً، وَهَذَا يَنْزِعُ آيَةً،....) [٤٨]، وأخرى: (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ،...)[٤٩].

حتى أن من هَوْل غضب النبي –ﷺ– على صحابته المتجادلين والمتخاصمين حول الآيات القرآنية وبعض مسائلها والذين بلغوا مرحلة التنازع وتعالي الأصوات حتى خرج رسول الله –ﷺ– إليهم غضبان آسفا، فرح عبد الله بن عمرو فرحا شديدا أن لم يكن حاضرا هذا المجلس وسُرَّ بتخلفه هذا على عكس دوام استمراريته ولزومه مجالس النبي–ﷺ–، وحرصه على ذلك: " فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلُّفِي عَنْهُ [٥٠].

وإن من كراهية الإسلام للتفرق المذموم كراهيته الشديدة للاختلاف في قراءة القرآن فضلا عن المراء والجدال والتخاصم والتنازع في أثناء حفظ القرآن وفهمه وتفسيره وتدبره، لذلك: " نجد الرسول الكريم، يأمر بالانصراف عن قراءة القرآن إذا خشي من ورائها أن تؤدي إلى الاختلاف.. فرغم ما هو معلوم لكل مسلم من فضل قراءة القرآن، وأن لقارئه بكل حرف عشر حسنات، لم يأذن بقراءته أذا أدت إلى التنازع والاختلاف، سواء أكان الاختلاف في القراءة وكيفية الأداء، فأمروا أن يتفرقوا عند الاختلاف.. أم كان الاختلاف في فهم معانيه، فالمعنى: اقرؤوا والزموا الائتلاف على ما دل عليه، وقاد إليه، فإذا وقع الاختلاف، أو عرض عارض شبهة تقتضي المنازعة الداعية إلى الافتراق، فاتركوا القراءة وتمسكوا بالمحكم الموجب للألفة واعرضوا عن المتشابه المؤدي إلى الفرقة"[٥١].

فقد ثبت عَنِ النَّبِيِّ –ﷺ– من حديث جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عنه، أنه نهى قوم من أصحابه كانوا قد قرأوا القرآن واختلفوا فيه وتجادلوا عن قراءته فقال: (اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ) [٥٢]، يقول يوسف القرضاوي معلقا على الحديث بعدما أورده: " أي تفرقوا وانصرفوا لئلا يتعدى بكم الاختلاف إلى الشر"[٥٣].

وعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–، قَالَتْ: تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–: (فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ)[٥٤].

قال الحافظ ابن حجر: في تعقيبه وشرحه لهذه الأحاديث:" في هذا الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف والنهي عن المراء في القرآن بغير حق ومن شر ذلك أن تظهر دلالة الآية على شيء يخالف الرأي فيتوسل بالنظر وتدقيقه إلى تأويلها وحملها على ذلك الرأي ويقع اللجاج في ذلك والمناضلة عليه"[٥٥].

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان –ﷺ– اختلفت الأمة الإسلامية على مستوى الحفاظ وقراء الأمصار في قراءة القرآن الكريم، وكاد الاختلاف وداء الجدال والمراء ينتشر ويتوسع ويهدد الأمة ويشكل خطورة، في مجالي القراءات القرآنية والأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، ومن ذلك على وجه التحديد الاختلاف في وجوه الأداء نظرا لتعدد وجوه التلقي والقراءة والإقراء ومدارسه وتفرق المقرئين في الأقطار، الأمر الذي كاد يحدث الشقاق والانشقاق، ويوقع فتنة تصيب الأمة في المرجعية الفكرية العليا والأولى، وفي رمز وحدتها وضمان اجتماعها

---

[٤٧] **مسند الإمام أحمد**، أحمد بن حنبل الشيباني، ج٦، ص ٣٣٣.
[٤٨] **الإبانة الكبرى**، ابن بطة ،ج٤، ص٣٠٩.
[٤٩] **سنن ابن ماجة**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجة، ج١، ص٣٣.
[٥٠] **سنن ابن ماجة**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجة ج١، ص٣٣.
[٥١] **الصحوة الاسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم**، القرضاوي، ص ٢٧-٢٨.
[٥٢] **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن اسماعيل البخاري،ج٦، ص١٩٨ و ج٩، ص١١١، و**صحيح الإمام مسلم** ، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ج٤،ص٢٠٥٣.
[٥٣] **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم** ، القرضاوي، ص٢٧.
[٥٤] **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن اسماعيل البخاري ج٦، ص٣٣، و**صحيح الإمام مسلم** ، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ج٤، ص٢٠٥٣.
[٥٥] **فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري**، ابن حجر العسقلاني، ج٩، ص١٠٢-١٠٣.

وهو القرآن الكريم، لولا أن الخليفة عثمان بن عفان –ﷺ– أدرك هذه الأمة قبل أن يتسع خارق الافتراق، وأطفأ هذه الأسباب بعملية إعادة جمع القرآن الكريم وتوحيده في مصحف واحد وإخلائه من الأحرف السبعة ووجوهها، وهو الجمع الثالث والأخير تحقيقا للمصلحة العليا للدولة والخلافة الإسلامية.

فعن ابن شهاب أن أنَس بن مالك حدَّثه أن حذيفة بن اليمانِ قَدِمَ على عثمان، وكان يُغَازي أهلَ الشامِ في فتح أرمينية وأذرَبيجانَ مع أهل العراق، فأفزعَ حذيفة اختلافهمْ في القراءة، فقال حذيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنين، أدركْ هذه الأمة قبلَ أن يختلفُوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى!.." [٥٦]، وأخرج الطبري عن أبي قِلابة أنَّه قال: " لما كان في خلافة عثمان جعل المعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل، والمعلِّم يعلمُ قراءةَ الرجل، فجعل الغلمانُ يلتقونَ فيختلفونَ حتى ارتفع ذلك إلى المعلِّمينَ، حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمانَ فخطب فقال: " أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فَمَنْ نأى عنِّي من أهل الأمصارِ أشدُّ فيه اختلافًا وأشد لحنًا. اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا " [٥٧]، وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ أنَّ عثمان قال: فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قِرَاءتي خيرٌ من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كُفْرًا [٥٨] قلنا: فماذا ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحفٍ واحدٍ، فلا تكون فرقةٌ، ولا يكون اختلافٌ. قلنا: فنعم ما رأيت" [٥٩]، فأوقف عثمان بن عفان –ﷺ– هذا الاختلاف والجدال والمراء وأطفأ نار الفرقة بجمع القرآن على مصحف واحد.

فإذا كان هذا الجدال المنهي عنه لخطورته يحدث للناس الذين اجتمعوا على قراءة القرآن وتدبر آياته وتفسيرها فتجادلوا واختلفوا في معانيه وقضاياه وتعدد وجوهه حتى أمرهم رسول الله–ﷺ– بترك القراءة على هذه الصورة الجدلية، وأمرهم بالتوقف والقيام عن القرآن حتى ينتفي عنهم الجدل، فكيف ستكون طبيعة الجدال حول القضايا والمسائل الدنيوية في أمور سياسية واجتماعية واقتصادية وعصبيات بغيضة وتعصبات مقيتة واختلافات فكرية وثقافية ما أنزل الله بها من سلطان، وهي واقعة في أوساط المسلمين على مستوى نخبهم في القديم والحديث، بل وما حجم ذلك الاختلاف والجدال والمراء والخصام الذي صار في زماننا هذا لا تحمد مغبته ولا عقباه؟.

المبحث الخامس

التَّقْلِيد السّلْبي والتّشبُّه بأهْلِ الكِتَاب والتَّبعيَّة بالغَلَبَة

أولاً: التقليد السلبي لليهود والنصارى والمشركين والمنافقين بالولاء الخالص والتبعية العمياء:

إن تقليد المسلمين لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وغيرهم من أهل النحل والوثنيات والملحدين وطوابير المنافقين ومكاتبتهم وموالاتهم والأخذ بأسباب التبعية العمياء في حياتهم الدينية والدنيوية والأخلاقية ومتابعتهم حذو القذة بالقذة، والنهل من عاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم وطرائقهم النظرية والسلوكية المخالفة في الأصل والأساس لديننا وإسلامنا وقرآننا وسنة نبينا وشريعتنا الغرّاء، وفكرنا الإسلامي المستنير المشرق، يعد كل ذلك السبب الأهم في هذا الصدد، فهو الذي فسح المجال ليتنافس المسلمين ويتسابقون على مختلف مستوياتهم في التقرب والتودد بين أيدي اليهود والنصارى والقوى الغربية والشرقية المعادية للإسلام مما جعلهم متبعين مفترقين باسطي عقولهم وأيدهم وأذرعهم على أبوابهم، وبذلك انتفش الاختلاف المذموم بين المسلمين، وحصل التنازع، وزادت الفرقة اتساعا، وعمَّ التفرق العامة والخاصة.

وبذلك قدَّم كثير من أبناء الاسلام وحكامهم ولائهم للأعداء الغالبين لهم في الخارج والداخل على طبق من ذهب طلبا للانتصارات البينية والغلبة على البعض الآخر، وتحقيقا للمصالح الشخصية، والمنافع الحزبية، والمكاسب الاجتماعية، والعطاءات المالية التي تصب في صناديق مشاريع التفرقة الموجَّهة إلى ذات البين في الداخل الاسلامي المغلوب على أمره بفعلهم، فنافقوا بلا حدود، وافترقوا أيما تفرُّق،

---

[٥٦] **صحيح الإمام البخاري**،ج٦، ص ١٨٣. وانظر توضيح أسباب الجمع عند عثمان في : **مدخل إلى القرآن الكريم**، محمد عبد الله دراز، ص٤٣، **والمدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، لزرزور، ص١٢٠.

[٥٧] **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري، ج١، ص٦٢.

[٥٨] عَن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسولَ اللهِ ؟ قالَ: نَزلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَة أَحرُف، عَلى أَيِّ حَرْف قَرَأْتُم فَقَدْ أَصَبْتُمْ، فَلاَ تَتَمَارَوْا فِيهِ فَإِنَّ الْمِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ. **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي، ج١٨،ص٥٠.

[٥٩] **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر، ج٩، ص ١٨.

وتمزقوا كل ممزَّق، وتباعدوا في أفكارهم، وفي عقولهم، وفي أبدانهم، وفي وسائلهم وأهدافهم وغاياتهم، مما ضرَّ في حياتهم ودينهم ودنياهم وقوَّتهم ومصادر عزّهم وعزّتهم. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ**﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال تعالى:﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [النساء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩]، قال الزحيلي في تفسير الآيتين: " بشر أي أنذر يا محمد المنافقين من هؤلاء وغيرهم الذين كانوا يميلون مع الكفرة ويوالونهم بالعذاب المؤلم الذي لا يعرف قدره في نار جهنم. ومن صفاتهم أنهم كانوا يتخذون الكافرين أولياء وأنصارا وأعوانا، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ظنا منهم أن الغلبة ستكون للكافرين، ولم يدروا أن العاقبة للمتقين لأن الله معهم. ثم أنكر الله عليهم ووبخهم فذكر أنهم إن كانوا بذلك يطلبون العزة أي القوة والمنعة عند هؤلاء، فقد أخطئوا لأن العزة لله في الدنيا والآخرة، وهو يؤتيها من يشاء، والمراد أن العزة تكون في النهاية لأولياء الله الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم" [٦٠].

وجاء في المحاسن في نفس الصدد" أي: يتخذونهم أنصارا مجاوزين موالاة المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ أي: أيطلبون بموالاتهم القوة والغلبة. وهذا إنكار لرأيهم وإبطال له. وبيان لخيبة رجائهم. ولذا علله بقوله: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً أي: له الغلبة والقوة. فلا نصرة لهم من الكفار. والنصرة والظفر كله من الله تعالى. وهذا كما قال تعالى في آية أخرى:﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨] "[٦١].

وبسبب هذا التقليد المشبوه، والمشابهة الممقوتة الصادرة عن كثير من المسلمين ومتابعتهم العمياء لليهود والنصارى والمشركين والمنافقين فيما يقولون ويفعلون، وأقصد بالتقليد والمشابهة والمتابعة التطلع المهين إلى ما عند الآخرين، والانبهار بالأغيار الممنوعة، والتأثر بغير أهل الديار المشروعة، وترك ما أنزل الله على هذه الأمة في آخر الكتب، وما أرسل الله في آخر الأنبياء والرسل، وما شرع لها في أكمل الشرائع، تلك الشريعة الغضة الطرية الشابة التي لم تشب، الصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان وحال، وبذلك كله بانت في الأمة العربية والاسلامية حياة الذل والمهانة والاستكانة بين الناس، وظهرت اليد السفلى العربية والاسلامية الممدودة التي تتسوَّل من الغربيين والشرقيين أنظمة وسياسة وتشريعا وحياة مادية وتطبيعا أخلاقا وحضارة.

فانتهز المتغلبين الأقوياء هذه الفرص السانحة، وهذه الثغرات المتاحة فوسعوا فجواتها، واستغلوا هذه النعرات المشتعلة فأذكوا نيرانها، فكانت الفتن البينية الدهماء والهوجاء، فعمّ النفاق والشقاق والانتقام والتفرق والتمزق الذي لم تُحمد له عقبى ولا مغبة، ولا تُتقى كوارثه في ظل هذا الضعف والدونية، كل ذلك بالتطلع السلبي إلى ما عند غير المسلمين، فوقعت الأمة بين مخالب الأطماع، ومزالق التبعية العمياء لليهود والنصارى خاصة من دون العالمين، وتحت وطئت الانبهار بطراق حياتهم الدينية والدنيوية والفكرية والأخلاقية، وفي الخوض معهم في الذي خاضوا ولعبوا واستهزأوا بالله جلا وعلا، وبالدين الحق وبآيات القرآن الكريم وبالرسول -ﷺ- وسنته الصحيحة الثابتة.

يؤكد هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾ [النساء:١٤٠]. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ [المائدة:٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ**

[٦٠] **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة مصطفى الزحيلي، ج٥، ص٣٢٠.
[٦١] **محاسن التأويل** ، محمد جمال الدين القاسمي، ج٣، ص٣٧٢.

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٥٥-٥٧].

وما أروع تشبيه النبي -ﷺ- لهذه الأمة وهم في أشد الموافقة والمتابعة والتقليد لليهود والنصارى، وهو التشبيه البالغ منتهاه في التصوير والدِّقة، المتضمن للتحذير، وهو التشبيه الذي يصدِّقه الواقع المرير لحالنا أمتنا، فعنْ أَبِي سَعِيدٍ -رضي الله عنه-، أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ-، قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ)؟ [٦٢]، لذلك علَّق مصطفى ديب البغا على هذا الحديث، وما أصوب تنزيله على الواقع وهو يشرح جمله ويفك محترزاته، إذ قال رحمه الله : " سنن: سبل ومناهج وعادات. شبرا بشبر: كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية لله تعالى ومخالفة لشرعه. جُحْر ضبّ: ثقبه وحفرته التي يعيش فيها، والضب: دويبة تشبه الجرذون تأكله العرب، والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته ونتن ريحه وخبثه، وما أروع هذا التشبيه الذي صدَّق معجزة لرسول الله -ﷺ- فنحن نشاهد تقليد أجيال الأمة لأمم الكفر في الأرض فيما هي عليه من أخلاق ذميمة، وعادات فاسدة تفوح منها رائحة النتن، وتمرغ أنف الإنسانية في مستنقع من وحل الرذيلة والإثم، وتنذر بشر مستطير. فمن: أي يكون غيرهم إذا لم يكونوا هم وهذا واضح أيضا فإنهم المخططون لكل شر والقدوة في كل رذيلة"[٦٣].

فما كان أحرى بنا مسلمين ومؤمنين أن نخشى الله ونتبعه في كل شيء، ولا نخشى الذين كفروا أو نتبعهم ونقلدهم في شيء! وما كان أجدر بنا مسلمين ومؤمنين أن نكون عند مستوى تحمل المسؤولية والأمانة الاسلامية التي تحملناها بصفتنا إنسانيين وآدميين مكرمين! تلك المسؤولية العظيمة التي أكملها الله لنا دينا خاتم، وأتمها علينا نعمة محفوظة من الزوال، ورضيها لنا دينا وشريعة ومنهاجا وإسلاما، فيا ليتنا نرضى بالإسلام دينا لحياتنا كما رضيه الله لنا لأمتنا، ويا ليتنا لم نتطلع إلى الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بتبعية عمياء وبتقليد الجاهلين، فنتفرق ونتنازع ونتمزق ونضل بعد أن جاءنا العلم والهدى والبينات.

ثانيًا: التَّشبُّه بطرائق اليهود والنصارى وأتباعهم في العقيدة والسلوك فيما يخالف شرْعنا:

إن النَّهل من طرائق أهل الكتاب والأخذ عنهم، ومشابهتهم في التعليم والتربية والثقافة والتفكير والأخلاق والسلوك، وفي المظاهر الشخصية والجواهر الإنسانية، وفي أساليب الحياة الفردية والأسرية والمجتمعية، ومتابعتهم حذو القذة بالقذة، إنه لأكبر خلل، وإنه لأمر جلل، وخطب عظيم وزلل، ومنزلق خطير إلى هاوية سحيقة، حيث فسح المجال لتعدد المشارب والمناهل، واختلاف الوسائل، وتنوع الأهداف والغايات، وتفرق المآلات والمآرب، وتلوث الأخلاقيات والسلوكيات، وتعكير أجواء حضارتنا وثقافتنا ومصادرنا، وهو الأمر الذي أنبت في بيئتنا ومجتمعاتنا العربية والاسلامية، وفي ناشئتنا وشبابنا وأجيالنا نابتات السوء والرَّذيلة فأثمر الفرقة والتفرق، وحصدنا من زرعه أشواك الاختلافات والشقاقات والنازعات بين أصحاب الشريعة الواحدة الكاملة التامة التي رضيها الله لنا شريعة ومنهاجا، بنص قوله تعالى الصريح في القرآن: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [الآية:٣]. وهي نعمة الهداية والاتحاد بعد نقمة العداوة والافتراق والضلال ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾[عمران:١٠٣].

والقرآن الكريم هو دستور ديننا وعقيدتنا، ونظام أخلاقنا، ومعيار صحة سلوكنا، وآياته وأوامره ونواهيه هي قوانيننا الصادرة الفاعلة، ولوائحنا الداخلية النافذة، تلك التي تأمرنا بالاستقلالية الفكرية في النظرية والسلوك، وتنهانا عن التبعية الشكلية والجوهرية للكافرين أو مشابهتهم في دقيق الأمور وعظيمها على السواء، فقد احتلت قضية تحريم تشبه المسلمين بأهل الكتاب والمشركين والمنافقين المساحة الواسعة

[٦٢] **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، ج٤، ص١٦٩.
[٦٣] **المصدر السابق**، شرح وتعليق مصطفى ديب البغاء على الحديث في الحاشية، ج٤، ص١٦٩.

بالتصريح والإشارة والتلميح لتشمل آياته النهي عن المشابهة القولية والفعلية والمعنوية في مختلف مجالات التعامل والعلاقات، في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاقيات والسلوكيات والعادات والأعراف والتقاليد العامة والخاصة.

والآيات التي تنهى المسلمين عن مشابهة أهل الكتاب والمشركين والمنافقين في هذا المعنى كثيرة، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد:١٦]. قال ابن كثير في تفسير الآية: نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية[٦٤]. وكلام ابن كثير هنا عام وشامل في المشابهة المنهي عنها، بل إنه قوي الدلالة على المراد. وفي الآية نهي عن نوعين من المشابهة بالكفار، الأول: المشابهة العامة المطلقة ومتابعتهم في كل شيء، ومنه مشابهتهم في الاختلاف والافتراق، والثاني: المشابهة في خصلة من خصالهم التي هي طول الأمد وقسوة القلوب وهما السبب الرئيس في التحريف والانحراف والافتراق من بعد ما جاءهم العلم بالحق.

وتؤكد هذه الآية آيات أخرى منها: قوله تعالى:﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [النحل: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [الروم:٣١-٣٢] ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الحشر:١٩]. وكلها آيات تأمر المؤمنين وتنهاهم أن لا يكونوا متشبِّهين باليهود والنصارى والمشركين والمنافقين.

ومن هذا المنطلق القرآني فإن الله تعالى يُحذِّرنا في آيات أخرى أن لا نقع في منظومة المشابهة لمواقف سلبية اتخذها أهل الكتاب اليهود والنصارى مع الله وأنبيائه ورسله وكتبه، ومنها في مجال قضية الاتباع والسمع والطاعة، قال تعالى:﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء:٤٦]، فهذا مشهد كشف الله به واقعهم، وتأتي الآيات في سورة الأنفال لتحذرنا من التشبه بهم في مقولتهم هذه وسلوكهم هذا، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ﴾ [الأنفال:٢٠-٢١].

والرسول-ﷺ- هو المبين للقرآن الكريم بالقول والفعل وبالأمثلة التفصيلية الأكثر توضيحا وتأكيدا لما جاء في القرآن من النهي عن تقليد اليهود والنصارى والتشبه بهم، وسنته الصحيحة الثابتة حافلة بالشواهد والوقائع في النهي عن التشبه بأهل الكتاب والمشركين والمنافقين، ولهذا تنوعت دلالات نهي النبي -ﷺ- عن المشابهة لهم؛ فتارة أولى يكون بالقول كقوله -ﷺ-: (خالفوا اليهود؛ فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم)[٦٥]، وكقوله-ﷺ- : (إِنَّ اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى لاَ يَصْبُغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ) [٦٦]، وتارة ثانية بالفعل كصيام يوم عاشورا ويوم قبله[٦٧]، وذلك لما يترتب على مشابهتهم ومتابعتهم من حب يتبعه تقليد وافتراق بعد مودة للكافرين ظاهرة وباطنة في داخل الصف الواحد والديانة الواحدة في المجتمع المسلم، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده إلى مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ ذَلِكَ: يَعْنِي وَضْعَ الْيَدَيْنِ عَلَى الْخَاصِرَةِ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَتْ: " هَذَا فِعْلُ الْيَهُودِ " وقال البيهقي: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ فِي مَتْنِهِ، (عَنْ عَائِشَةَ كَانَتْ تَكْرَهُ أَنْ يَجْعَلَ يَدَهُ فِي خَاصِرَتِهِ وَتَقُولُ: إِنَّ الْيَهُودَ تَفْعَلُهُ)[٦٨]، وقال مصطفي ديب في الشرح: أن يجعل: أي المصلي. خاصرته : وسطه تحت الأضلاع وفوق الورك، قلت لعمري أن هذه الحركة لأشبه بحركة الراقصين والراقصات خصوصا واليهود يهزون ويتمايلون في أثناء صلاتهم.

---

[٦٤] **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير: ٣٩٦/٤.
[٦٥] **سنن أبي داوود**، سليمان السجستاني: ٤٨٦/١.
[٦٦] **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، ج ١٧٠/٤.
[٦٧] انظر: **سنن أبي داود**، سليمان السجستاني، ج ٢، ص٣٢٧.
[٦٨] **شعب الإيمان** ، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ج٤، ص٤٨٦، وانظر: **صحيح الإمام البخاري**، ج٤، ص١٧٠.

وفي نَهْي الرَّسول–ﷺ– المسلمين عن المشابهة لليهود والنصارى في أمور الجهل والتجهيل العلمي بكتبهم المنزلة وهم يقرؤونها ثم لا ينتفعون بها وقع أبناء الأمة الاسلامية في قراءة القرآن الكريم وتلاوته وتعليمه في الظاهر المتبادر مع عدم الانتفاع بآدابه وأحكامه وأوامره ونواهيه وتفعيلها في حياتهم الدينية والدنيوية كما يفعل اليهود في قراءتهم للتوراة ويفعل النصارى في قراءتهم للإنجيل ثم لا ينتفعون، وكذلك المسلمون اليوم يفعلون، إلا ما رحم ربي منهم، وهم قليل قياسا بالذين لا يُحكِّمونه في أنظمة حكمهم وسياساتهم للأمة، رَوَى زياد بن لبيد الأنصاري قال: ذكر النبي –ﷺ– شيئاً، فقال: "وذاك عند أوان ذهاب العلم"، قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: " ثكلتك أمّك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا ينتفعون مما فيهما بشيء؟ "[٦٩].

فعندما يأمرنا رسولنا ونبينا–ﷺ– بمخالفة اليهود أو أهل الكتاب في بعض المظاهر وعلم ذلك الصحابة ودربهم وزجرهم ونبههم إلى خطورة ما يتخلقون ويسلكون إلا لكي يُعلِّمنا أن طريق اليهود والنصارى العِوَج غير طريقنا المستقيم، وأن شريعتهم المنسوخة غير شريعتنا المُحْكَمة، وأن كتبهم المحرَّفة غير كتابنا المحفوظ، وعليه فهم ملزمون باتباع ديننا وشريعتنا، فجميع العرب والعجم ما لهم الا تباع الاسلام، ورسول الاسلام، وقرآن الاسلام، وسنة الاسلام، وما يفعله المسلمين اليوم من دخولهم أجحار التقليد والمشابهة والمتابعة لأهل الكتاب والمشركين والمنافقين، فهو –ﷺ– إنما خلاصته أن حرمة المشابهة والمتابعة والتقليد لليهود والنصارى تزداد حرمة وتحريما ونكارة وشناعة فيما هو أعظم وأخطر من هذه المنهيات والأوامر في المخالفة كما جاء في الأحاديث السابقة الذكر.

لننظر إلى هذه الآيات التي تنهى عن مشابهة الكفار واتباع أهوائهم، وفيها سقف المشابهة المنهي عنها والتي هي أساس التفرق المذموم بين المسلمين تشبُّها ببني إسرائيل، قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٦ – ٢٠].

قال ابن تيمية: " المشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدرج.. إن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة، وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر.. فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية، تورث المحبة والموالاة لهم، فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد " [٧٠] .

فليست المسألة هي في ظاهر طلب مخالفة المسلمين لأهل الكتاب في صيام، ولا قيام، ولا تنعل، ولا شرب، ولا أكل، ولا صبغة شعر، ولا وضع يد في خاصرة في أثناء الصلاة، وإن كانت هذه الأمور ملامح ومظاهر لتبعية المسلمين وتشبههم بالكفار، لكن المسألة هو في ظاهر العجب العقدي، وفي باطن الاعجاب الديني الذي لا محالة يؤدي إلى التأثر والتطبيع الأخلاقي والسلوكي، وتقديم الولاء والاستسلام والإذعان للثقافتين اليهودية والنصرانية، وبه يتم غض الطرف عن أحكام الشريعة وإنقاصها من أطرافها، والحب لشرائع سابقة قد انتسخت وتحرفت واندثرت، وقد حكم عليها القرآن الكريم بالتحريف والبطلان، فالقضية تكمن في حب عقائد اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين والتشبه بأهلها وفي المودة لهم ومتابعتهم، وأن التساهل في هذه الأمر يجرنا للتساهل في الاخلاق والعقيدة والتربية والتنشئة، وهو الأمر الذي ساهم بطريق مباشرة في نشأة التفرق المذموم بين المسلمين.

المبحث السادس

التدخل الأجنبي المباشر وإسهام أدعياء العلماء من الداخل

[٦٩] **مسند الإمام أحمد**، أحمد بن حنبل الشيباني، ج٤، ص١٦٠.
[٧٠] **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ج١، ص٤٢-٤٤، بتصرف.

أولا: صناعة اليهود والنصارى التَّفرُّق بين المسلمين وتبنِّي ذلك ماديا ومعنويا وحماية:

إن اليهود والنصارى يُعدُّون في التاريخ الإسلامي من أكبر الأسباب وأهمها في صناعة التَّفرُّق بين المسلمين، ودُّوا ذلك في قلوبهم، وقالوه بألسنتهم، وفعلوه بأيديهم، واعتمدوه تخطيطا وهدفا، واستراتيجية وغاية، يُنفِّذون ذلك مباشرة بلا واسطة، وكذلك بواسطة أيدي مَنْ دَارَ في فلكهم من المشركين والمنافقين والخائنين والذين في قلوبهم مرض في المنطقة العربية والإسلامية على مرِّ التاريخ الاسلامي لهذه الأمة، بل ومتابعة زرع التفرق المذموم بكل أشكاله وألوانه بين الأقليات الإسلامية في العالم من ذوي الأصول الأعجمية أو العربية والاسلامية المهاجرة، بل ويتبنى اليهود والنصارى ومعهم الوثنيون والماديون الملحدون مشاريع استئصال المسلمين وذراريهم ومقدراتهم المادية والمعنوية في كثير من البقاع والجاليات والأقليات الإسلامية[٧١]، ويفسدون في الديار الإسلامية بغية تدمير البيت الاسلامي، وذات بين المسلمين، وجعل قلوب شتى ماديا ومعنويا، بل وحماية وتمويل كل مَنْ يعمد إلى التفريق بين المسلمين، وهكذا هي طبيعة اليهود والنصارى.

ولسنا في هذا السبب بصدد بسط التاريخ وسرد وقائعه، ولكننا في صدد نقل مشاهد تاريخية قرآنية فيها وضع الأعداء الألِدَّاء حجرة الأساس لمشاريع التفرق المذموم بين المسلمين في صدر الاسلام، وإحياء سنن الجاهلية من جديد واستضافتها في الأوساط الإسلامية وإيقاد شعلتها يوم كانت الأمة الاسلامية جديدة طرية لا زالت قريبة عهد بأحداث الجاهلية لولا أن الإسلام ورجاله كانوا لهم بالمرصاد فنتفوا ريشهم المنتفش، وقصُّوا أجنحتهم المُرفْرِفة، وخلَّعوا مخالبهم الطويلة، وأخرجوهم من ديارهم وحصونهم، وكتب الله على هؤلاء الأعداء المحاربين الجلاء من أرض الجزيرة العربية وما جاورها وهم صاغرون[٧٢]، تحقق ذلك بقوة الاسلام الدين الجديد، ثم بقوة أهل الإيمان وفي مقدمتهم الرسول –ﷺ– وهي القوة المستمدة من قوة الله الحق المبين.

ويبين القرآن الكريم طبيعة العقاب النازل على أهل الكتاب بسبب زرعهم المشاقة والمحاربة والتفرق المذموم عن الدين الإسلامي في أوساط المؤمنين، ففي قصة يهود بني النضير في المدينة يَذْكر القرآن قصة إخراجهم التاريخي كأول حشْرٍ لهم وذلك بسبب غدرهم بالنبي –ﷺ– وخيانتهم له، والذي بلغ فيه كيدهم محاولة قتله بغية إراحة أمة اليهود منه ومن ظهوره النبوي، وإسكات صوت الإسلام إلى الأبد بحسب زعمهم، كما قتل بعض أجدادهم من اليهود والنصارى بعض الأنبياء والرسل السابقين وافترقوا عنهم، وَنَزَلَ فِي يهود بَنِي النَّضِيرِ، وفي المنافقين الذين ناصروهم سُورَةُ الْحَشْرِ بِأَسْرِهَا[٧٣]، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الحشر:٢-٤].

وقد جاء القرآن الكريم يحمل في طيَّات سجلاته، وفي بيِّنات آياته الحضور اللافت والكاشف لحجم جحود أهل الكتاب وكفرهم بالله وكتبه وأنبيائه ورسله، ومقدار كراهيتهم للإسلام والرسول والقرآن والمؤمنين، ودورهم المباشر والخطير في إعمال التفريق بين المسلمين وتفكيكهم وجعل قلوبهم شتى، الأمر الذي يظهر كثيرا في المادة العلمية النقلية لأسباب النزول في كتب التفسير بالمأثور ، والتفسير بالمعقول، وفي كتب علوم القرآن ومصادره، وفي كتب الحديث والسنن والآثار التي أوردت هذا الشأن، وفي مؤلفات أسباب النزول المخصوصة بهذا العلم وهي كافية في المجال.

---

[٧١] وهو ما حدث للمسلمين في التاريخ القديم، وما هو حادث في التاريخ المعاصر في بعض ولايات ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، والصين، وصربيا والبوسنة والهرسك وسرايفوا، وبورما وما ينمار والروهنغيا، وكشمير في الهند، وفي الدول العربية المشتعلة، فضلا عن فلسطين وقدسها وغزتها ، وهذا واضح للعيان ولا يحتاج استدلال.

[٧٢] عن ابن عُمَرَ رَضِي الله تَعَالَى عنهُما قَالَ حارَبَتِ النَّضِيرُ وقُرَيْظَةُ فأجْلى بَنِي النَّضِيرِ وأقَرَّ قُرَيْظَةَ ومَنَّ عليْهِمْ حتَّى حارَبَتْ قُرَيْظَةُ فقَتَلَ رِجالَهُمْ وقَسَمَ نِساءَهُمْ وأوْلادَهُمْ وأمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إلاَّ بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بالنَّبِيِّ -ﷺ- فأمَّنَهُمْ وأسْلَمُوا وأجْلَى يَهُودَ المَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَني قَيْنُقَاعَ وهُمْ رَهْطُ عَبْدِ الله بنِ سَلامٍ ويَهُودَ بَنِي حارِثَةَ وكُلَّ يَهُودٍ بالمَدِينَةِ. **صحيح الإمام البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، ج٥، ص٨٨، **وصحيح الإمام مسلم**، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ج٣، ص١٣٨٧.

[٧٣] انظر: **السيرة النبوية**، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المَعَافري، ج٢/١٩٠-١٩٢، و**تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، ج٨، ص٥٦-٥٩، و**التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، محمد سيد طنطاوي، ج١٤/٢٨٢-٢٨٣.

وبناء عليه يُدرك الباحث المتمعِّن في هذه المصادر أن غالبية الآيات القرآنية التي لها أسباب نزول أنها نزلت بأسباب أهل الكتاب وعنادهم وافتراقهم عن أنبيائهم ورسلهم ثم تعدِّيهم على خاتم الأديان والكتب والرسل والشرائع، وهم يعارضون الله والرسول والقرآن وفكرة الإسلام، ويسعون لتفريق المسلمين وتمزيق ألفتهم سعيا حثيثا، وخصوصا الأعمال العدائية التي كان يصنعها اليهود وزعماؤهم في المدينة المنورة وما جاورها على مدار اليوم والليلة، وكذلك الآيات التي نزلت بأسباب تتعلق بأتباعهم وعملائهم من المشركين والمنافقين العرب المتفقين معهم في إيذاء الرسول-ﷺ- والرسالة والصَّحابة، ومحاربة الاسلام، فضلا عن قصص الأنبياء والرسل فغالبيتها تأتي في تقرير عقائد اليهود والنصارى الجاحدة للحق.

وهو التعامل اليهودي والمسيحي مع أنبيائهم ورسلهم الذي بلغ ذروته فيما سجلته هذه الآيات كشفا لمواقفهم في الأمم السابقة، من الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقتل الذين يأمرون الناس بالقسط والعدل من أتباع الأنبياء، وإعلان العصيان الشامل لله ولرسله وكتبه، قال تعالى: ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ [البقرة:٦١]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾ [آل عمران:٢١-٢٢]، ومنها تلك السور والآيات التي نزلت على النبي -ﷺ - ابتداء من غير سبب، وتحكي وقائع وأحوال ماضية كبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم، أو مستقبلة كالحديث عن الساعة وما يتصل بها، ومعظمها يأتي عن أخبار بني إسرائيل وافتراقهم عن أنبيائهم وتحريفهم للكتب السماوية المنزلة، وهو كثير في القرآن الكريم(٧٤).

وها هي سورة آل عمران تكشف لنا صورة أو حالة من مئات الصور والحالات التي فرَّق بها اليهود والنصارى بين المسلمين التفريق المذموم، وهي حالة فيها بيان حجم التدخل السافر منهم لإذكاء الماضي المُتصَارِع المُتقَاتِل البئيس بين المسلمين الأوس والخزرج، ويبعثون فيهم يوم بُعاث الجاهلي الدموي من جديد إرصادا وتفريقا بين المؤمنين أمة صحابة رسول الله -ﷺ- حتى كادوا يقتتلون في أول حياة لرسول الله -ﷺ- وهو يبلغ رسالة القرآن للناس كافة ويؤسس لبناء الدولة الاسلامية في المدينة، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران:٩٨-١٠٥].

وسبب النزول هو خير مبيِّن للقرآن وكاشف للعقول عن ظواهر الآيات وبواطن المعاني ومغازي النُّقول، فقد جاء في سبب نزول هذه الآيات ما ذكره زيد بن أسلم، قَالَ:" مرّ شَاس بن قيس وَكَانَ شَيخا قد عسا فِي الْجَاهِلِيَّة عَظِيم الْكفْر شَدِيد الضغن على الْمُسلمين شَدِيد الْحَسَد لَهُم على نفر من أَصْحَاب رَسُول الله -ﷺ- من الْأَوْس والخزرج فِي مجْلِس قد جمعهم يتحدثون فِيهِ فَغَاظَهُ مَا رأى من ألفتهم وجماعتهم وَصَلَاح ذَات بَينهم على الْإِسْلَام بعد الَّذِي كَانَ بَينهم من الْعَدَاوَة فِي الْجَاهِلِيَّة فَقَالَ: قد اجْتمع مَلأ بني قيلة بِهَذِهِ الْبِلَاد وَالله مَا لنا مَعَهم إِذا اجْتمع ملؤهم بهَا من قَرَار، فَأمر فَتى شَابًّا مَعَه من يهود فَقَالَ: اعمد إِلَيْهِم فاجلس مَعَهم ثمَّ ذكرهم يَوْم بُعَاث وَمَا كَانَ قبله وأنشدهم بعض مَا كَانُوا تقاولوا فِيهِ من الْأَشْعَار.. فَفعل فَتكلم الْقَوْم عِنْد ذَلِك وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى توَاثب رجلَانِ من الْحَيَّيْنِ، على الركب أَوْس بن قيظي أحد

(٧٤) انظر: **مناهل العرفان في علوم القرآن** ، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج١، ص١٠٨، و **دراسات في علوم القرآن**، محمد بكر إسماعيل، ص١٥٣، **والموسوعة القرآنية المتخصصة**، تأليف: مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، ص٢٩.

بني حَارِثَة من الْأَوْس، وجبار بن صَخْر أحد بني سَلمَة من الْخَزْرَج فَتَقَاوَلَا.. وَقَالُوا: قد فعلنَا السِّلَاح السِّلَاح، مَوْعدكُمْ الظَّاهِرَة، وَالظَّاهِرَة الْحرَّة، فَخَرجُوا إِلَيْهَا، وانضمت الْأَوْس بَعْضهَا إِلَى بعض، والخزرج بَعْضهَا إِلَى بعض على دَعوَاهُم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّة.

فَبلغ ذَلِك رَسُول الله –ﷺ–، فَخرج إِلَيْهِم فِيمَن مَعَه من الْمُهَاجِرين من أَصْحَابه، حَتَّى جَاءَهُم فَقَالَ: يَا معشر الْمُسلمين، الله الله أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّة وَأَنا بَين أظْهركُم، بعد إِذْ هدَاكُمْ الله إِلَى الْإِسْلَام، وأكرمكم بِهِ، وَقطع بِهِ عَنْكُم أَمر الْجَاهِلِيَّة، واستنقذكم بِهِ من الْكفْر، وَألف بِهِ بَيْنكُم، ترجعون إِلَى مَا كُنْتُم عَلَيْهِ كفَّارًا؟ فَعرف الْقَوْم أَنَّهَا نزغة من الشَّيْطَان، وَكيد من عدوه لَهُم، فَأَلْقوا السِّلَاح، وَبكوا وَعَانَقَ الرِّجَال بَعضهم بَعْضًا، ثمَّ انصرفوا مَعَ رَسُول الله –ﷺ– سَامِعين مُطِيعِينَ قد أطفأ الله عَنْهُم كيد عَدو الله شَاس. وَأنزل الله فِي شَأْن شَاس بن قيس وَمَا صنع ﴿ **قل يَا أهل الْكتاب لمَ تكفرون بآيَات الله وَالله شَهِيد على مَا تَعْمَلُونَ** ﴾ إِلَى قَوْله ﴿ **وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ وَأنزل فِي أَوْس بن قيظي وجبار ابْن صَخْر وَمن كَانَ مَعَهُمَا من قومهما الَّذين صَنَعُوا مَا صَنَعُوا ﴿ **يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا إِن تطيعوا فريقاً من الَّذين أُوتُوا الْكتاب يردوكم بعد إيمَانكُمْ كَافِرين**﴾ إِلَى قَوْله ﴿ **وَأُولَئِكَ لَهُم عَذَاب عَظِيم** ﴾،"[٧٥].

وفي سورة الحشر يبين الله تعالى حجم التأثير النظري والعملي الذي صنعه اليهود والنصارى بين صفوف المنافقين والمشركين، وسيطرة أهل الكتاب على عقول المنافقين وصياغة عقائدهم وتوجيه سلوكياتهم باتجاه الافتراق عن الله ورسوله والمؤمنين، فضلا عن تحكمهم بقيادة كفار قريش نظرا لتوافق أهدافهم وغاياتهم في مكافحة الاسلام الدين الجديد وإبادة أهله، ثم يكشف الله في آياته الطبيعة الداخلية للعلاقة القائمة بين الأطراف المحاربين للإسلام والمسلمين، أهل الكتاب، وأهل الشرك، وأهل النفاق، خاصة اليهود والنصارى من الخارج الاسلامي والمنافقون من الداخل الاسلامي، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [الحشر:١١-١٤].

واستمرت سياسة التفريق هذه التي انتهجها أهل الكتاب مع الاسلام والمسلمين في عهد الرسول –ﷺ– وفي عهد الخلفاء الراشدين المهديين: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وجيل الصحابة –رضي الله عنهم– وجيل التابعين وما بعدهم على مرِّ التاريخ في كل المعارك وعلى كل المستويات وبمختلف الأساليب والمسمَّيات الظاهرة والخافية، المباشرة وغير المباشرة، وبكل أنواع الحرب وأدواته ووسائله، فما من معركة يخوضها المسلمون مع كفار قريش، أو يخوضها أعداء الإسلام مع الدولة الإسلامية والخلفاء المسلمين إلا كان أهل الكتاب طرف أساسي يخططون بعقولهم، ويثيرون القبائل العربية وأحزاب الأعراب وصناديد قريش بمكرهم وكيدهم، وينفقون أموالهم، ويحاربون بسلاحهم في صف واحد المشركون واليهود والمنافقون في مواجهة المؤمنين.

يقول صاحب كتاب: التآلف بين الفرق الإسلامية :"لم يكد ينتهي عصر الخلفاء الراشدين حتى حصل الخلاف الذي به انصدعت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم وأصبحوا فرقا وأحزابا، يكفر بعضهم بعضا، ولم يسلم من ذلك التكفير أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.. والواقع أن العامل الأكبر في هذه الفتنة من عنصر أجنبي يهودي وهو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الاسلام واستنبطن الكفر، وكاد للمسلمين كيدا لا زالوا يعانون آثاره ويصلون ناره..

ذاك الخبيث (عبد الله بن سبأ) أو (عبد الشيطان بن مسبوق) هو الذي أشعل نار الفتنة وغذَّاها بإيحاء من اليهود الذين أرسلوه كيدا للمسلمين بعد أن أجلوا عن جزيرة العرب وفشلوا في الحرب، فلم يكن لديهم الا الحيل. وابن سبأ هذا هو الذي دس كثيرا من مبادئه الفاسدة

---

[٧٥] **الدر المنثور في التفسير المأثور**، جلال الدين السيوطي، ج٢، ص٢٧٨-٢٧٩، و **أسباب نزول القرآن**، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، ص١١٥-١١٨، و **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، محمود الألوسي ، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢.

بين المسلمين، وأضل كثيرين منهم مع طهارة طويتهم وحسن نيتهم اشتد الخلاف بين المسلمين من ذلك الحين وانتشر النزاع وامتد إلى جميع البلاد الإسلامية وانقسموا إلى جيشين متحاربين يُعمِل كل منهما سلاحه في الآخر" [٧٦].

ثم دار الزمان بدورته وعهوده وقرونه وأحواله، وعاد اليهود والنصارى في العصر الحديث للقيام بذلك الدور مع فارق قوة الإمكانات والمقدرات والوسائل المادية والمعنوية والعسكرية والأمنية والفكرية والثقافية والأخلاقية لصالحهم، وفي الجهة المقابلة ضعف المسلمين في تلك الأمور المادية والمعنوية كلها، وتفرقهم شيعا وأحزابا وجماعات وطرائق قدد بتغذية مباشرة من اليهود والنصارى بصورة أكثر من ذي قبل، بل وتمزق المسلمين أنظمة وشعوبا شرّ ممزَّق بأخطر من سابق عهدهم في التاريخ الاسلامي، عاد اليهود والنصارى وعاد معهم تاريخهم الخبيث بأقوى مما كانوا عليه في صدر الاسلام، وقد امتلكوا الجو والبحر والبر والأرض والإنسان، وصادروا القدس الشريف أولى القبلتين وثالث الحرمين، ويغازلون ثاني القبلتين وأول الحرمين، ويستخدمون التعريض مع ثاني الحرمين، ليكونوا هم السبب الأقوى والفاعل في القديم والحديث في نشر التفرق المذموم بين المسلمين وإذلالهم، وصناعة البغضاء والتنازع والاقتتال، والاستقواء عليهم بالقوى العالمية.

يفعلون ذلك تعبيرا عن عدم الرضا بالدين الاسلامي وبالمسلمين جملة وتفصيلا، وينطلقون من كره عقدي يهودي نصراني أعمى مغلف بصراع سياسي في الظاهر لكنها عداوة دينية متجذرة ومتأصلة تكمن في قلوبهم عقيدة حاقدة كما صرح بها القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [البقرة:١٠٥] وقال تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾[البقرة:١٢٠]. وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ** ﴾ [النساء:٤٤] وقال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة:٣٢]، وكلها آيات شديدة الوضوح والدلالة على صناعة اليهود والنصارى التَّفَرُّق المذموم بين المسلمين وتبنِّي ذلك ماديا ومعنويا وحماية.

ثانيا: إسهام بعض العلماء في صناعة التفرق المذموم على المستويين الرأسي والأفقي للأمة:

نتكلم هنا عن بعض العلماء والفقهاء الذين ارتقوا مراتب في الدين والشريعة، ومناصب في الدنيا والوظيفة عند عِلِيَة القوم وأرباب السياسة، أو في الأحزاب والجماعات والتنظيمات، وعلموا ظاهرا من أمر الدين الحق، وهم الذين ساوَمُوا ببعض دينهم وعلومهم على متاع من الدنيا قليل وهزيل، وساهموا إلى حد كبير في صناعة التفرق في هذه الأمة بأقوالهم وأفعالهم، وأجادوا توسيع الشروخ والشقوق بين الأجيال والأقيال والأتباع، وأحدَثوا هزات مادية ومعنوية بمقاييس مختلفة، في محصلتها النهائية أوجدت انشقاقات كبيرة، ونزاعات واسعة، وانقسامات عميقة وخطيرة، وجراحات غائرة في البنية الدينية والأخلاقية والفكرية والاجتماعية للأمة الاسلامية على المستوى الرأسي والأفقي، وعلى مستوى حقول الصحوة الاسلامية في الوطنين العربي والاسلامي، مما تشكل منها إعاقات دينية مانعة، وصراعات سياسية مستدامة، وهم بعض العلماء الذين أسْلمُوا زمامهم لأئمة الطغيان، ودخلوا بأقوالهم وأفعالهم دروب التيهان، واعتمدوا فقه الدَّوَران مع القائد والسلطان.

وعادة هؤلاء يشترون بآيات الله وأحاديث رسوله-ﷺ- ثمنا قليلا، ويقبضون بالدين دراهم معدودة، ويتخذون الاسلام وسيلة لمصالحهم ومنافعهم، ومطيَّة سالكة لأسيادهم الحُكَّام، ويجعلون وظائفهم في الدين والدنيا وسائط للانتقام والتمزيق والانقسام، وبعض قضايا الاسلام والشريعة لهوا ولعبا وهزوا في بلاط الزعماء والرؤساء ودواوين الملوك ومجالس الأمراء وصروح السلاطين، ويصنعون من الدين والعلم والفقه

[٧٦] **التآلف بين الفرق الإسلامية**، محمد حمزة، ص١٦-١٧.

والفتوى التي ورثوها من الكتاب قوارب النجاة لانحرافاتهم، وقوالب مخصوصة للبيع والشراء بحسب الطلب، فهؤلاء هم أدعياء العلماء الذين نعنيهم هنا كسبب من الأسباب المنشئة للتفرق المذموم في الأمة، وهو لا شك سبب مؤسف ومحزن، بل ومخزي لأن الأصل في العلماء الأسوياء تبليغ رسالة الإسلام الحق للناس كما جاءت وتمت واكتملت، وجمع الأمة على الاعتصام بالكتاب والسنة.

إنه الخلل الذي أصاب جانبا كبيرا من ديار الأمة الإسلامية عربها وعجمها في مقتل، وذلك من جهة النُّخَب العلمية المتصدرة في الدين والشريعة والفقه والفتوى بلا معالم ولا ضوابط ولا محاذير كافية، فعمَّ البلاء الخواص والعوام من المسلمين على السواء، وهو الخلل ذاته الذي أصاب أمة أهل الكتاب من قبل، وتولى كبره نُخَبَهم كالرهبان والأحبار والقساوسة والحاخامات والأئمة المختصون بالدين، فكان الافتراق عن الأنبياء والرسل، والمروق عن الدين الحق، والتحريف للكتب السماوية المنزَّلة، والإفساد في الأرض بالعلم والدين.

يؤكد هذه المعان القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ**﴾ [النساء: ٤٦]، ليصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ [المائدة:١٣]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾ [المائدة:٤١]، وخاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [التوبة:٣٤].

فهؤلاء هم أدعياء علماء أهل الكتاب يحرِّفون التوراة والإنجيل لفظيا ومعنويا ونظريا وسلوكيا بغية الطعن في الدين، وإغفال حظا مما ذكِّروا به من العلم وإخفاؤه عن الرسول –ﷺ–، وتحريفا للوحي وانحرافا به، وإفسادا كبيرا في الأرض، وقد وقع قسم كبير من أدعياء علماء الاسلام فيما وقع فيه أدعياء الدين والعلم من أهل الكتاب، فغيروا معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بحسب الأهواء والآراء خدمة للأسياد من العباد، وجيَّروا الاسلام عن الجادة، وأخضعوا آياته وسنة المصطفى محمد–ﷺ– للأغراض والمطامع والمصالح الشخصية والمناصب والإتاوات وجرِّ الأموال، وبناء المكانة الاجتماعية التي يرضونها، وتحقيق شهوات الأنفس بغير الحق، فعمَّت الفتنة، وانتشر البلاء، وسيطر الوباء على العامة والتلاميذ والاصحاب والأتباع والمريدين، فنشأت التعصُّبات والعصبيِّات، وكان التفرق المذموم، وتضخمت بعض المذاهب، وتقلصت أخرى وتناقصت من أطرافها، وانتفخ بعض شيوخها، وكأني بهؤلاء العلماء قد اتكأوا شبعانين على كنباتهم وأرائكهم وقنواتهم الفضائية يفتون بغير ما أنزل الله، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله بحسب التوجيه من الهوى النفسي، أو من ولي الأمر وصاحب الكرسي، فكانت النتائج الخصام والشقاق والتنازع والتفرق والاقتتال وذهاب قوة الاسلام والأمة.

وحول الخلل العام والشامل الذي حل بأمتنا الاسلامية وعطَّل طاقاتها في كل المجالات المادية والمعنوية، وتسبَّب في التفرق والتنازع والفشل والضعف، يتساءل يوسف القرضاوي تحت عنوان: مسؤولية العلماء، إذ قال: " هل تقع المسؤولية على العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ودعاة الحق، وهداة الخلق الذين أخذ الله عليهم الميثاق لَيُبَيِّنُنَ دين الله للناس ولا يكتمونه. بيد أن من العلماء من قصر في واجب البيان والبلاغ، ومنهم من مشى في ركاب السلطان، وجعل العلم خادما للسياسة، وجعل من نفسه جهازا لتفريخ (الفتوى حسب الطلب).. على أن من العلماء من أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ولقى في سبيلها من العذاب ما لقى، بل منهم من قدم رقبته في سبيل الله!!"[٧٧].

[٧٧] **أين الخلل..؟**، يوسف عبد الله القرضاوي، ص٢٤-٢٥.

إن الأصل في خشية العالم الرباني من الله عزَّ وجل، وتقديره للعلم الذي أخذه من الدين، وللأمانة الرسالية التي تحمَّلها، وللوراثة المخصوصة التي اكتسبها من الرسول الكريم أن تحفظ الدين والدنيا، وتحمي الأمة من الاختلاف والتفرق والحروب، وتحفظ للمؤمنين دماء زاكية طاهرة من أن تسفك بغير حق، وتذود عن علماء قدوة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من أن يمسَّهم ظلم الطغاة واستبداد البغاة فيُخرجون من أوطانهم، أو يُقتَّلوا، أو يُسجنوا ثم يهانون ويذلون ويُعذَّبون ويُرْمون بالإثم بغير ما اكتسبوا، أو لعل تلك الخشية الربانية إن حصلت فيهم أن تصنع في أوساط المسلمين تعاونا ووحدة وإخاء وألفة، وتخلق قوة وريحا ونصرا مؤزرا للمؤمنين، ذلك لو وضعوا هذه الآيات نصب أعينهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾[فاطر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى:﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾ [الأحزاب:٣٩]؟!.

وإن عالم الاسلام والشريعة إذا كتم علما من العلوم وحق من الحقوق وشهادة لله أن يقيمها في المجتمع أو أمتنع عن نصيحة لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين والحكام يقدمها براء لذمته أمام الله وأمام الناس أجمعين، فإن كتمه للواجب الديني المأمور بتبليغه والمتعيِّن عليه يكتم به أنفاس الاسلام والمسلمين ويخنق الحق المبين خنقا، وتلك خيانة عظمى لله ولرسوله وللمؤمنين وللمواثيق والعهود التي أخذها الله على علماء الكتب السماوية، وهي بالتالي خيانة عظمى لعلماء الإسلام والكتاب والسُّنة في هذه الأمة، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [عمران:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾ [عمران: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة٦٧]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:١٤٦].

وإن سكوت العالم من هؤلاء عن منكر يُفعل، واشاعة فحشاء تنتشر، أو التشريع لذلك والرضا به وتطويع الدين للأهواء والآراء والنزوات والشهوات بغير حق من بعد ما جاءه العلم بغيا منه، وهو في مكان الصدارة، وقد تحمل الأمانة والمسؤولية كل هذا يُعرِّض الأمة إلى فساد عظيم، وإفساد كبير، وغضب من الله وعذاب أليم، وقد كتب الله اللعن والطرد للذين كفروا من أهل الكتاب وهم الرهبان والأحبار والقساوسة بسبب عصيانهم واعتداءاتهم على الحق المبين وأنبيائهم المبلِّغين، والسبب الأكبر أنهم كانوا يعيشون المنكر ويُطبِّعون حياتهم معه، ولا يتناهون بينهم أو ينهون عنه، بل وكأنهم يُشرِّعون له، ويَرْتضُون بفعله مشاركة ومداهنة ومجاملة، إضافة إلى ذلك اتخذوا من دون الله أولياء يتولونهم ويوالونهم ويُخضعون لهم أمور الدين، وبهذا كله افترقوا عن الدين الحق فلم يؤمنوا بالله والنبي والرسول والكتاب المنزل حق الإيمان، لذلك كانت الآيات القرآنية صريحة في مكاشفتهم والحكم عليهم في الآخرة، بل واسقاط مكانتهم في الحياة الدنيا، واعتبارهم فاسقون، قال تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة:٧٨-٨١]، وإن ما جاء على لسان داوود وعيسى ابن مريم في علماء بني إسرائيل الرهبان والأحبار والقساوسة جاز في علماء الاسلام، ويجوز في رجال دينه وشريعته المماثلين لهم في القول والفعل والأخلاق والسلوك قياسا تاما مكتمل الأركان في العلة والسبب.

ولا أوضح مما قرر الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة:٦٢-٦٣]. إذ قال: "

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد –ﷺ:﴿ **وَتَرَى**﴾ يا محمد ﴿ **كَثِيرًا** ﴾ ، من هؤلاء اليهود الذين قصصت عليك نبأهم من بني إسرائيل ﴿ **يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾، يقول: يعجلون بمواقعة الإثم... وتأويل ذلك: أن هؤلاء اليهود الذين وصفهم في هذه الآيات بما وصفهم به تعالى ذكره، يسارع كثير منهم في معاصي الله وخلاف أمره، ويتعدَّون حدودَه التي حدَّ لهم فيما أحلّ لهم وحرّم عليهم، في أكلهم ﴿ **السُّحْتَ** ﴾ وذلك الرشوة التي يأخذونها من الناس على الحكم بخلاف حكم الله فيهم..

القول في تأويل قوله: ﴿**لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ ، هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم والعدوان وأكل الرشى في الحكم، من اليهود من بني إسرائيل، ربانيوهم وهم أئمتهم المؤمنون، وساستهم العلماء بسياستهم وأحبارهم، وهم علماؤهم وقوادهم ﴿ **عَنْ قَوْلِهِمُ الإثْمَ**﴾ يعني: عن قول الكذب والزور، وذلك أنهم كانوا يحكمون فيهم بغير حكم الله، ويكتبون كتبًا بأيديهم ثم يقولون: هذا من حكم الله، وهذا من كتبه. يقول الله: ﴿ **فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٩]. وأما قوله:﴿ **وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ** ﴾، فإنه يعني به الرشوة التي كانوا يأخذونها على حكمهم بغير كتاب الله لمن حكموا له به...﴿ **لبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وهذا قسم من الله أقسم به، يقول تعالى ذكره: أقسم: لبئس الصنيع كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار، في تركهم نهيَ الذين يسارعون منهم في الإثم والعدوان وأكل السحت، عما كانوا يفعلون من ذلك. كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدَّ توبيخًا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوفَ عليهم منها"[٧٨].

وأنظر إلى عجيب أمر هؤلاء العلماء والأئمة والربانيين والأحبار والحكام وبؤس أعمالهم بعد اشتراكهم في العصيان والافتراق عن الحق، فالبعض يحكم بغير ما أنزل الله، والبعض يحلِّل ما حرم الله، أو يحرِّم ما أحل الله للأئمة والحكام، وطائفة ترتشي وتأكل أموال الناس بالبطل، وطائفة أخرى يكتبون للمرتشين بأيديهم الأذونات والفتاوى، وكلهم يجمعون بين قول الإثم، وأكل السحت، وعدم التنكير على بعضهم البعض، أو نهييهم عن هذا الصنيع البئيس والفعل القبيح؟!، وهل بعد هذا التشنيع والتوبيخ للربانيين والأحبار والرهبان والقساوسة والعلماء من تشنيع وتوبيخ في كل زمان ومكان وحال؟ وهل يبقى دين إسلامي؟ أو شريعة إسلامية؟ أو فكر إسلامي صافي نقي في النظرية والتطبيق إذا كان العلماء والفقهاء والربانيون المسلمون الذين يحملونه ويبلغونه ويفتون الناس به بهذه الصورة التي رسمها القرآن عنهم في جانبها السلبي؟!.

وكل ما يتكلم به علماء الإسلام العظماء المعتبرين من السلف والخلف الصالح فيما يقع من بعض العلماء من زلات وكبَوَات عن طريق السهو والغفلة والتقصير وأنه يجب التعامل معها ومع أصحابها كأخطاء في حالة الإغفال، وأن تُحمَل على أطيب محمل، وأن يُعذر صاحبها ولا يسقط اعتباره ولا رتبته في الدين نظرا لرصيده في هذا الجانب، وأنه ليس بمعصوم كالأنبياء والرسل[٧٩]، فإنما ذلك الحديث ينحصر عن زَلاَّت العلماء الاستثنائية والنادرة في حياتهم وفي مناهجهم وفي بنيتهم العلمية التخصصية، فهي من الأخطاء الاجتهادية الناتجة إما عن الجهل في التخصص العلمي الذي خاضه هذا العالم، أو تلك التي يُستَكره عليها، أو من باب النسيان الذ يطرأ عادة على الإنسان أيا كان، ففي الحديث: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)[٨٠]، وحديث: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)[٨١].

وأما الإصرار والاستمرار والتكرار فهو انحراف بالدين عن جادة الحق مع تَعمُّد وسابق إرصاد وتقصُّد، وأرى ضبط هذه الزلات وأصحابها العلماء بشرائط وضوابط، منها: أن لا تتكرر هذه الزلة أو الفتوى أو الحديث المخل الصادر عن هذا العالِم، وأن لا يتعمَّدها ويصر

---

[٧٨] **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري، ج١٠، ص٤٤٨-٤٤٩.
[٧٩] انظر تفصيلات ذلك في: **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية: ج٦٩/٣٥، و**الاعتصام**، الشاطبي:٨٦٢/٢، و**الموافقات** الشاطبي:١٧٠/٤-١٧١، و**إعلام الموقعين**: ابن القيم:٢٩٥/٣، و**منهاج السنة النبوية**: ابن تيمية:٣٣٧/٤، و ص٥٤٣-٥٤٤.
[٨٠] **سنن ابن ماجة**، محمد بن يزيد القزويني، ج١، ص٦٥٩.
[٨١] **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي ج٤، ص٢٤٠.

عليها، أو يتم قياسها بما ينتج عنها من ضرر كبير يمس كيان الأمة الاسلامية في مؤمنيها وعقيدتها ومقدساتها، وأن يُصلح أمرها وأمره فورا بالاستدراك والتصحيح، وأن يُحدث بعدها مراجعة لذاته، وتوبة لله، واعتذارا للأمة ولبني جنسه ووظيفته من العلماء المعتبرين.

ولذلك أوجب أئمة هذه الأمة من العلماء على الناس عدم متابعة هذه الزلات والأخطاء، أو تقديم السمع والطاعة لأصحابها، فمهما كان لأصحابها مكانة اجتماعية وسياسية ووظيفة ومنزلة، ومرتبة علمية عليا فإنهم قد أحدثوا بأقوالهم وأفعالهم وفتاويهم هذه ما لم يأذن به الله ولا يوافقه الشرع والعقل، وما أضَرَّ اليوم والأمس بأمتنا الاسلامية ووحدتها الداخلية وقوتها الخارجية تفريقا وتمزيقا وتشريدا وتقتيلا كما هو الضرر الناتج والحاصل في الواقع عن علماء الزلات والهفوات والكبوات هؤلاء، بزلَّاتهم الحادثة، والمواقف المبتدعة، والفتاوى الخاطئة أحيانا، والمتعمَّدة والمسيَّسة حكما وأمرا أحيانا أخرى، وهي التي تصدر عن دور الافتاء الرسميَّة وغير الرسميَّة الموَجَّهة أو من منابر مساجد الضِّرار وما أكثرها، وهي تلك التي تقف مع الظالم، وتنتصر المستبد، وتعين المجرم، وتؤيد الجبارين في الأرض، وتؤيد الحاكم الخارج على أحكام الشريعة وإجماع الأمَّة.

وفي هذا يقول الإمام الشاطبي في الاعتصام: " فعلى كل تقدير لا يتبع أحد من العلماء إلا من حيث هو متوجه نحو الشريعة قائم بحجتها حاكم بأحكامها جملة وتفصيلاً وأنه متى وجد متوجهاً غير تلك الوجهة في جزئية من الجزئيات أو فرع من الفروع لم يكن حاكماً ولا استقام أن يكون مُقْتَدى به فيما حاد فيه عن صوب الشريعة البتة) [٨٢]، وقال في الموافقات في الصدد ذاته: "إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة ولا الأخذ بها تقليداً له وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع ولذلك عدت زلة وإلا فلو كانت معتداً بها لم يجعل لها الرتبة ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها)[٨٣].

وقال عبد الرحمن اللويحق في كتابه: قواعد في التعامل مع العلماء:" والمنهج الرشيد في التعامل مع زلات العلماء قائم– بعد ثبوت كونها زلَّةٌ– على ركنين. الأول: عدم اعتماد تلك الزلة والأخذ بها، لأنها جاءت على خلاف الشريعة. وعلى هذا يحمل النهي الوارد عن اتِّباع العلماء في زلاتهم، ذلك أن العلماء بمثابة الأدلاء على حكم الله وشرعه، فان خالفوا لم يكن لهم فيما خالفوا فيه اعتبارٌ.."[٨٤].

وما أقوى ما قرره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– في هذا المجال، وهو دور العلماء بزلاَّتهم وزيغاتهم، والمنافقون المجادلون بالقرآن، والأئمة المضلون في هدم الدين، وتفتيت عرى الأمة وتمزيق حبالها، إذ قال: " ثَلَاثٌ يَهْدِمْنَ الدِّينَ: زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ "[٨٥]. وهي ظلمات ثلاث إذا اجتمعن على أمة فرَّقت كلمتها، وشتت قلوب أبنائها، وجعلتهم شيعا وأحزابا يفترقون ويتنازعون ويتقاتلون، بل هي أسباب ثلاثة تهدم الدين من أساسه وقواعده، وأولاها: زلَّة العالم التدميرية؟!. وقد أجاد الإمام الأوزاعي في تحذيره عامة المسلمين وخاصتهم عندما قال: " من أخذ بنوادر العلماء خرجَ من الاسلام"[٨٦]، وكأنه يقصد بالنوادر الزلات والهفوات والأخطاء والفتاوى الطائشة الهدَّامة.

---

[٨٢] **الاعتصام**، محمد بن موسى الشاطبي، ج٢، ص٨٦٠.
[٨٣] **الموافقات**، محمد بن موسى الشاطبي، ج ٥/ ١٣٦.
[٨٤] **قواعد في التعامل مع العلماء**، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ص ١٤٠.
[٨٥] **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، أبو محمد عبد الله الدارمي، ج١، ص٥٠٦، و**جامع بيان العلم وفضله**، ابن عبد البر: ج٢، ص ٩٧٩-٩٨٠، و**الاعتصام**، محمد بن موسى الشاطبي، ج٢، ص ٨٧٥.
[٨٦] **السنن الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي،ج١٠، ص٣٥٦، و**موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية**، محمد بن عبد الرحمن المغراوي ج٢، ص٣٥٦.

وهذا هو الموقف الصحيح من علماء الزلات الهادمات للدين الحق، والفتاوى القاصمات لظهور الشعوب، وهي تلك الأخطاء المتعمَّدة والمكررة القاتلة التي تهلك الحرث والنسل، وتفرِّق الشعوب والمجتمعات والجماعات، وتصنع من أدعياء العلماء أوتادا لعروش الحكام الجبارين في الأرض. وما نقلناه عن الإمام الشاطبي من كتابيه الاعتصام والموافقات في الأسطر السابقة يؤكد كل ما أردنا تقريره هنا. وهذا لا يُنقص من قدر العلماء العاملين المخلصين الناصحين شيئا، أولئك العلماء والأئمة القائمون بالواجب على ما يرضي الله عزَّ وجل، ووفق كتابه الكريم، وسنة رسوله–ﷺ– الصحيحة الثابتة، وهُدَى الخلفاء الراشدين المهديين، وقول وعمل السلف الصالح والأئمة المعتبرين. أيا كانت مواقعهم ومراتبهم ووظائفهم بين الساسة أو الخاصة أو العامة.

الخاتمة وفيها خلاصة البحث ونتائجه:

والآن، وبعد هذه الإلمامة السريعة بما يتوافق مع مساحة الأبحاث القصيرة، وبعد هذه الجولة القرآنية لبيان الأسباب المنشئة للتفرق المذموم في الأمة الأسلامية وتقريرها في ضوء آيات القرآن، أختم بذكر خلاصة ضمنتها بعض النتائج، وتتلخص في الأمور الآتية:

١ـ التفرق المذموم يكون في مفهومه العام: افتراق عن الدين وجحده وإنكاره بالكلية ،كما افترق أهل الكتاب عن أنبيائهم ورسلهم وكتبهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، وكما افترقوا عن الإسلام، ورسول الإسلام محمد بن عبد الله –ﷺ–، وكتاب الإسلام وهو القرآن الكريم، وقد بشَّرت بذلك كتبهم كالتوراة والانجيل، وكما دعاهم القرآن الكريم، فهم في افتراق حتى الساعة، وفعل مثلهم كفار ومشركوا قريش حذو القذَّة بالقذة. ويكون في مفهومه الخاص: اختلاف وتنازع وافتراق يحصل في أوساط أبناء الأمة الإسلامية الواحدة الذين جمعتهم كلمة شهادة التوحيد بوابة دخول الإسلام، فهم يختلفون في الدين والدنيا، وفي الله وفي الآخرة، يتجادلون ويتخاصمون ويتنازعون ثم يفترقون، وربما يتقاتلون ويبغي بعضهم على بعض اتباعا للأهواء والآراء والتأويل أو الاجتهاد في أصول الدين عقيدة وشريعة وسياسة شرعية، وكذلك في الفروع والجزئيات، ولا يزالون مختلفين ومفترقين حتى يعتصموا بالله وبحبله المتين إن فعلوا.

٢ـ يتقرر في البحث أن الجهل بالحق المطلق وهو الله تعالى وعدم المعرفة والعلم به سبحانه رأس كل بلية، وأساس كل خطيئة في عالم البشرية، وهو الأمر المؤدي إلى الجهل بالدين وأصوله ومصادره كالكتب المنزلة، والأنبياء والرسل الهادون، بغية معرفة الله والعلم به، والإيمان به والإسلام له كما هي أركان الإيمان والإسلام النظرية والعملية بالتمام والكمال، فعدمية العلم بالله وكتبه وأنبيائه ورسله بالكلية، أو ضعف ذلك أو الانحراف به، والغواية عن طريق الهداية إليه تعني الجهل بكل أشكاله وصوره، وهو الأمر المولِّد للفرقة والتفرق والافتراق عن الدين الحق أو التفرق فيه، على مستوى الاعتقاد النظري والسلوك العملي المغاير لهدى رب العالمين.

٣ـ إن إتباع الأهواء الضالة، وعبادة الذوات والأنفس المريضة من دون الله والدين الحق هو انزلاق في الباطل خطير ومهلك، يفضي في النهاية إلى الافتراق عن الدين، ومن ثم الافتراق البيْني في كل العلائق ما عدى الهوى الجامع بين المفترقين يظل هو المُستحْكِم حينئذ، عندما يصيب هذا البلاء العقدي الأفراد والجماعات والهيئات والشخصيات بلقاحه الفتاك، فلك أن تتصور إلى أي مدى تكون الفرقة قد استحكمت بين ذات المسلمين، ويومئذ يكون الافتراق قد تغلغل وانتشر في الصف الإسلامي المثقف وغير المثقف، وأطَّرهم بسلاسل آثاره وأغلاله، في وسط بشري يدَّعي الإسلام لكنه نصَّب البعض منهم الهوى واتبعه حذو القذة بالقذة، وجعله ديدنه والند الذي يعبده من دون الله الواحد الأحد! ودونك الآيات القرآنية في ذم اتباع الهوى على كثافتها في القرآن الكريم.

٤ـ كذلك سلوك مناحي التعصُّب للشخص أو لرأيه أو الإعجاب بنفسه، أو لرأي غيره من الناس، أو التعصُّب لرأي المذهب وإمامه وأصوله ومقرراته، أو التعصب لعالم أو شيخ أو مفتي، أو لسلطان أو رئيس أو حاكم أو ملك، أو طائفة أو طريقة أو حزب أو جماعة أو تنظيم في حال مخالفة هذا المُتعصِّب الصريحة أو المُتَعَصَّب له للكتاب والسنة والإجماع وأصول الشرع وموجباتهم، فهو ذلك التعصُّب المذموم الذي يصنع التفرق المحظور، والافتراق المحذور، ويجعل أبناء الأمة في أذم تفرق، وفي أخطر افتراق، وهي طرائق متَّبَعة للذين فارقوا الأنبياء والرسل سابقا والاسلام لاحقا من اليهود والنصارى والمشركين وطوائف الملحدين والمرتدين والمنافقين في كل زمان ومكان.

٥ـ إن العصبيَّة المذمومة هي الاستقواء بالقبيلة، أو المذهب، أو القومية، أو الحزب، أو الجماعة، أو النسب، وبالعنصر، واللون، واللغة، والجنس، والعرق، والنِّحل والفِرق، والطّرق الضالة المضلة، بمسمياتها القديمة أو الحديثة في مواجهة كتاب الله القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة الثابتة، والإجماع، والعقل المحكوم بأصول الشرع، وقواعد اللغة العربية الضابطة، ومنهج السلف الصلح، بهذه الأواصر المقيتة،

والعصبيات المُمِيتة التي تصد عن سبيل الله بمحاربتها للإسلام من حيث الجملة أو من حيث التفصيل. وهو السبب الأكبر في إشعال نار الفتنة والفرقة والافتراق بين المسلمين بعد الجهل بالدين واتباع الهوى والتعصب للآراء والأفكار والأشخاص.

٦_ يؤكد البحث على أن الجدال والمراء يرتبط عادة بالصورة التي هي في أسوأ حالتها صورة مجافية للحق والحقيقة، وتلك هي الصورة السائدة بين المجادِلين في قضايا دينية أو دنيوية على السواء، وهو التي تكون نهايته الحتمية التفرق والافتراق المذموم، بل إن كثرة الجدال والمراء والكلام في الدين وأصوله وفروعه والتخاصم بالباطل والخروج عن أدلة الكتاب والسنة وحججها الواضحة القاطعة والذهاب إلى غيرهما من أقوال الأشخاص والرجال والهيئات والجماعات وتقديمها بين يدي الله ورسوله، تعد من الأسباب الأساسية التي تصد الناس عن اتباع الحق أو القبول به وتدفع بهم إلى التماري بالشرِّ والتَّمَوْضُع خلف الكبر والعجب والتعالي والبطر والرياء بغية تسجيل الانتصارات الدينية والفكرية على الخصوم والبغي على الآخرين بالباطل، وهو الأمر الذي حصيلته المباشرة حصاد مرارات المفارقة البينية، والتنازع الشديد، والفشل المريع المؤدي إلى ذهاب قوة المسلمين برمتها.

٧_ يؤكد أن الجدال والمراء والاختلاف في القرآن الكريم بغير الحق، يصنع التفرق والتخاصم والتنازع، ويهدد الأمة فكريا وتشريعيا، وبناء على هذه النتيجة يظل الجدال والمراء بالباطل هو السبب الأكبر خطورة والأعظم هلكة في تفرق هذه الأمة، لأنه يمس مرجعية دستورية عليا في هرم الدين الإسلامي، وإذا كانت صِوَره قد حدثت في قضايا قرآنية ودينية بحتة في أيام النبي-ﷺ-، وتوسع ذلك كثيرا في عهد ما بعد الصحابة الكرام، حول النص القرآني وأصول الدين والعقيدة، وأركان الإيمان، والاسماء والصفات، والمحكمات والمتشابهات وحقائق الدين الكبرى، فلك أن تفكر إلى أي مدى قد عمّ هذا الابتلاء الأمة وقضاياها الفكرية والسياسية والاجتماعية والوطنية والحزبية والاجتماعية في واقعنا اليوم وطال العقل واللسان والبدن والدين؟.

٨_ إن تقليد اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وتقديمهم بالولاء، وسلوك دروب التبعية العمياء لهم، والتَّشبُّه بطرائقهم والنهل منها في العقيدة والسلوك والأخلاق فيما يخالف شرْعنا كل ذلك من التقليد المحرَّم، ومن المشابهة المنهي عنها لأهل الكتاب والتأثر السلبي بهم. ويتبع ذلك كل دعاوى تجديد الدين غير المنضبطة بأصول الشرع، ومقتضيات العقل، والقواعد اللغوية والشرعية، كل هذا أيضا من الدوافع الأصيلة التي تشكل الخلفيات لما يحصل في هذه الأمة من افتراق أصاب ذات البين الإسلامي، وشكل ظاهرة بارزة ومستمرة في الواقع، وإن المنزلق الخطير في القضية يكمن في حب اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين والانبهار بهم، والتشبه بهم وتقديم المودة لهم ومتابعتهم، ولأن التساهل في المنهيات في مجال المشابهة والمخالفة يجرنا للتساهل في الاخلاق والعقيدة والتربية والتنشئة، وهو الأمر الذي ساهم بطريق مباشرة في نشأة التفرق المذموم بين المسلمين.

٩_ ولقد شارك اليهود والنصارى في صناعة التَّفرُّق بين المسلمين وتبنِّي ذلك ماديا ومعنويا وحماية، وهو التدخل الأجنبي الذي أوجد التفرقة الجذرية بين الأنظمة الحاكمة والشعوب المغلوبة على أمرها، وقد تحقق ذلك عمليا وواقعا ماديا ومعنويا في ديار الأمتين العربية والإسلامية، ، فهذا سبب أساسي ورئيسي في صناعة حال الأمة الاسلامية على هذه الصورة المفترِقة على نفسها في كل المجالات وعلى كل المستويات، ومنها الدينية والفكرية والثقافية والعسكرية والأمنية والأخلاقية والحال هو خير بيان وشاهد.

١٠_ والإسهام المباشر من أدعياء علماء الإسلام وفقهائه في صناعة التفرق المذموم على المستويين الرأسي والأفقي للأمة الإسلامية هو الذي زرع بذور الفرقة والتفرق بسبب التفرق الحاصل بينهم، فكان التأثير السلبي على جمهور الأمة، ولم يتضرر الإسلام من الداخل كما تضرر من بعض العلماء أو أدعيائهم الذين يخاطبون الناس باسم الدين والإسلام، فبعضهم علماء يَتَّبِعُون الحكام تبعيَّة عمياء مكتملة الأركان والذوبان، ومهمتهم تلميع ولاة أمورهم، وتعليب الفتاوى لهم بحسب الطلب والمواصفات، وهؤلاء جعلوا أنفسهم أوتادا لتثبيت عروش الحكام أيا كان هؤلاء الحاكمين، تجدهم يدورون بدينهم وعلمهم وفقههم حيث دار السلطان لا حيث دار القرآن، فهم كارثة على الأمة في السلطة وفي

البَسْطَة، وبعضهم علماء يَتْبَعُون الشعوب صوريا لا حقيقة، وهؤلاء أنواع وألوان وأشكال، تمزَّقوا في ذواتهم ومزَّقوا شعوبهم وأتباعهم كل ممزَّق، بحيث تاهوا بأنفسهم وتوَّهوا أتباعهم، وغرقوا وأغرقوا غيرهم في الصراعات البينية الخبيثة، إلا ما رحم ربي.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم:

ثانيا: المصادر والمراجع:

١. **الإبانة الكبرى**، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ) تحقيق الجزء الأول والثاني: رضا بن نعسان معطي، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.

٢. **التآلف بين الفرق الإسلامية**، محمد حمزة، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى١٤٠٥هـ-١٩٨٥.

٣. **أسباب نزول القرآن**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

٤. **الاستقامة**، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن محمد ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣.

٥. **الاعتصام**، إبراهيم بن موسى الشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٧. **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٨. **أين الخلل**..؟ يوسف بن عبد الله القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، مطبعة المدني للمؤسسة السعودية بمصر، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٩. **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

١٠. **جامع بيان العلم وفضله**، يوسف بن عبد الله بن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١١. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ممحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، المتوفى (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١٢. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٣. **تفسير القرآن الحكيم**، المسمى(المنار)، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٤. **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى (٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ، السعودية، الطبعة:الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٥. **تفسير مقاتل بن سليمان**، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ) تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣هـ.

١٦. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ.

١٧. **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤١٨هـ-١٩٩٧.

١٨. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجَّالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، تاريخ نشر الأجزاء من ٨ – ١٥: فبراير ١٩٩٨م.

١٩. **درء تعارض العقل والنقل**، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن محمد ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٢٠. **دراسات في علوم القرآن**، محمد بكر إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، دار المنار الطبعة: الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢١. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ، دار الفكر – بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٢٢. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٣. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

٢٤. **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

٢٥. **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨م.

٢٦. **السنن الصغرى للنسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

٢٧. **السنن الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

٢٨. **السيرة النبوية**، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.

٢٩. **شرح السنة**، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٣٠. **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق ومراجعة نصوص وتخرج عبد العلي عبد الحميد حامد، اشراف مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.

٣١. **صحيح الإمام البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢. **صحيح الإمام مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)** مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

٣٣. **العصَبيَّة**، عبد الملك مرشد الشيباني، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية، للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء – اليمن، الطبعة الخامسة، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.

٣٤. **العصبية القبلية من المنظور الاسلامي**، خالد بن عبد الرحمن الجريسي، توزيع مؤسسة الجريسي، الطبعة : الأولى،١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م.

٣٥. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، ترقيم كتبه وأبوابه وأحاديثه، محمد فؤاد عبد الباقي، إخراج وتصحيح وأشرف: محب الدين الخطيب دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٦. **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (المتوفى: ١٣٧٨ هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، بدون تاريخ.

٣٧. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب– دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤هـ.

٣٨. **في ظلال القرآن**، إبراهيم سيد

٣٩. قطب، دار الشروق ، بيروت لبنان، القاهرة مصر، الطبعة التاسعة ، ١٤٠٠هـ–١٩٨٠م.

٤٠. **قواعد في التعامل مع العلماء**، عبد الرحمن بن مُعلا اللويحق، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.

٤١. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

٤٢. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٤٣. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٤٤. **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرون، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.

٤٥. **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الصمد الدارمي، (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م.

٤٦. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة: الثالثة، بدون تاريخ.
٤٧. **مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
٤٨. **المدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، عدنان زرزور، دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.
٤٩. **مدخل إلى القرآن الكريم**، محمد عبد الله دراز، دار القلم ، الكويت، ١٤٠٤هـ.
٥٠. **المعجم الأوسط**، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، بدون تاريخ.
٥١. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الهجرة بيروت - دمشق، دار الإيمان دمشق- بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
٥٢. **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٥٣. **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، مصر.
٥٤. **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.
٥٥. **مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير**، محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٥٦. **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ، دمشق بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٥٧. **مجموع الفتاوى** ، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى : ٧٢٨هـ)، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء- مصر، ، ط:٣، الثالثة ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .
٥٨. **منهاج السنة النبوية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
٥٩. **موارد الظمآن لدروس الزمان**، عَبدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ السّلمانِ، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.
٦٠. **الموسوعة القرآنية المتخصصة**، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، الناشر: وزارة الاوقاف، القاهرة - مصر، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٦١. **موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية** ، أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش - المغرب، الطبعة: الأولى، بدون تاريخ.
٦٢. **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم** ، تأليف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة الطبعة: الرابعة ، بدون تاريخ.

والحمد لله رب العالمين مَنْ إيَّاه نعبد وإيَّاه نستعين، والذي بنعمته تتم صالحات العاملين، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن جاء بعدهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين،،،